الدَّولة الدّرزيّة

المؤلف
بيجيه ده سان بيير
سنة ١٧٦٢

المترجم
حافظ أبو مصلح
سنة ١٩٦٧

المكتبة الحديثة
للطباعة والنشر
بيروت

الدَّولة الدّرزيّة

الطبعة الأولى ١٩٨٣
المكتبة الحديثة للطباعة والنشر - بيروت
محطة المزرعة شارع زيدان
تلفون ٣١٥٩٢٨

مقدمة

بقلم المؤرخ المتعمق الثقة

الاستاذ يوسف ابرهيم يزبك

اخي الكريم المفضال الشيخ حافظ ابي مصلح ،
جزاك المولى خيرا ووهبنا من لدنه حكمة وصلاحا .

قد اقصر في الاعراب عن شدة ارتياحي الى تكليفك اياي كتابة هذه المقدمة .

من الاعماق اشكر لك ثقتك معتذرا عن ابطائي . فالاشغال التي جعلتني طائر اجواء وجواب آفاق ، طوال الاشهر الاربعة الاخيرة ، حرمتني الانصراف الكامل لكتابة المطلوب . وحرمتني مرافقة علوية « التوحيد » والعيش مع رموزه النورانية وانا اطير في سماواته . فكان اني وضعت في الشرق بعض هذه « الدراسة » المتواضعة ، ووضعت بعضها الاخر في الغرب !

لم يتح لي ان اكتبها كلهــا في حالة استقرار وفراغ ،فنشأ عندي قلق علــى ان لا اكــون وفيت الموضوع كما اشتهي . (لا كمــا يستحق . فهذا الاشتهاء الاخر عسير جدا ، ان لم اقــل انه مستحيل التحقيق في عصر بعدنا فيــه عن شعشعانية التقشف التوحيدي ، ناهيك بوضعي الخاص ... عنيت انقفال باب الدعوة دوني) .

ثق بان الذي اشتهيه كريــم وجميل وحق . واي مشتهى اكرم واجمل واحق من ان يعرف اللبنانيون جميع اللبنانيين ، مذهب التوحيد الذي تسميه العامة بالدرزية ، تسمية خطأ من الواجب ان تبطل .

للمناسبة اقول : ان الموحدين عرفوا في الماضي باسم « الأعراف » ايضا ، كما اطلق على الذين فــي حوران ووعرائها لقب « آل معروف » . ثم كان مــن حظ هذا اللقب الانساني ، ومن حظ الموحدين ، ان ذاع على اقلام الصحافيين والادباء لقبا لجميع اهــل المذهب في لبنان وسورية وفلسطين ، فانتشر في العالم العربي مطاردا التسمية الخطأ (الدروز) ـ وليته استطاع ! ـ فصار الموحدون يعرفون ببني معروف ويعرفون بالدروز على السواء .

هؤلاء الاخوان مظلومون ــ والأرجح انهم الظالمو انفسهم ــ فأكثر ابنائهم « الجهال آلذين لم يتسلموا دينهم » بعيدون عن مذهبهم في جوهره ومراميه ، وهم مظلومون ايضا بان مواطنيهم يجهلــون حقيقتهم ؛ ومظلومون بان العالم كله ــ باستثناء فئة قليلة جــدا انعم عليها بالاطلاع على حقيقــة هذا المذهب ، قليــلا او كثيرا ــ وفي بعض نواحي تلك الحقيقة صور فــي الروحانية رائعة ــ قلت : ان العالم كله لا يعــرف شيئا عن مسلك التوحيد ، وان عرف فهي افتراءات اشاعها خصوم الفاطمية ، من المتعصبين وضيقــي الصدور ، ولا سيما بعد الكشف ، وبعد ثورة الغوغائية في القاهــرة على الدعاة ، وسفكها دماءهم ودمــاء اتباعهم في المسجد العتيق (جامع عمرو) في نكبــة السابع من شهر حزيران سنة ١٠٢٠ .

ارجح ان ازدياد الغضب على اهل المذهب ، بعدها ، لم يكن سببه القول بان الدعاة يطلبون تأليه الخليفــة الحاكم بامر الله بقدر اضطراب المتزمتين والمتحجرين الذيــن اغضبهم دخول النهج الفلسفي على البحث عن الله تعالى ، وعلى تفسير آيات كتابه الكريم تفسيرا باطنيا ، وهو النهج الفاطمي الذي واجه الاسلام قبل

عهد الخليفــة الحاكم بامر الله ، وقبل الكشف .
اخشى التوغل ، فالابتعاد .. وما سبيلي الا ان اقول ما استطعت معرفته من مذهب التوحيد ، وعنه، بقدر ما سمحت لي « الاستطاعه » بمختلف ابوابها ، وبقدر ما يسمح به بلد شرقي ـ وان هو لبنان ـ لا تقر تربيته ، ولا تخلفه ، حرية الفكر كاملة ، ولا سيما في شؤون الدين .. سبيلي ان ابوح بما وصلت اليه بعد مشاق متوقعة ، وحتمية من هذه المعرفة . وقــد حان لنا ان نمزق البرقع الذي اضطررنا الى التحجب به في ايام الانحطاط والظلام ، وان نعلن رايا صريحا في مذهب يحترم جميع الاديان السماوية ، ويأمــر بالفضائل المثلى ، فنكشف عنــه دون ان نمس تأويله الباطني ، ما دامت الحساسيــة الدينية السطحية ، نعم : السطحية ، هي المسيطره على جميع الشرقيين .
هذا الراي الصريح الذي اطالب باعلانــه يهمني ان يرتفع صوتا جاهرا بالحقيقة والانصاف ، وتصويب الاوهام ، **وان يخرج من فم ماروني** ـ بل من ضميره وقلبه ـ لعله يستطيــع محو ما علق في ذهن قومــه من مزاعم غير صادقة ..
لا اعرف ما بسطه هذا الكتاب في جزئه الاول

بعنوان « اصل الدروز » . وقد اعلمتنا انـك صرفت عنه النظر « لما اعتوره من اخطاء تاريخية (؟) ومـــا تضمنه من معلومات مغلوطة (؟) لا تستند الى اساس من الصحة » . (ص ٣٣ ، في الحاشية .) فما هي تلك الاخطاء ؟ ومن ناقش فيها ؟ ومتى عرضت على النقد ؟ ومن حكم عليها ؟

افلا ترى يا سيدي صحيحا ان تبقي كلام المؤلف كما هو ، ثم تصوب اخطاءه واغلاطه ؟ (الا اذا كان كفرا ولا انسى اننا في آلشرق) !

ذهبت الـى مـا قلته لان التصويب مفتـاح التعريف . وانت تعلم يا حضرة الاستاذ ان من النادر ان نجد اليوم باحثا ــ وان موحدا قحا ــ يغوص على درر المسلك ولا يتعثر في التنضيد ، فكيف ببوجيه دي سان بيير مؤلف هذا الكتاب الذي عنيت بتعريبه ، والرجل غريب الوجه واللسان ، والفكر والـروح ، وكتابه صدر سنة ١٧٦٣ ؟

واقول ايضا : ان كـل تصويب (لاي كلام جاء فيه خطأ عن مذهب التوحيد) لنا فيه نفع ، وكل بحث فيه لنا منه نفع . ذلك لان باب الوصول الى حقيقة المذهب لا يزال موصدا . والساعي الى معرفة تلـك الحقيقة

المكتومة يشبه رجلا في غرفة مقفلة لا يرى من الدنيـــا الا ما يقــع عليه نظره ضمن الجدران الاربعـــة . فاذا خــرج الى الشرفة شاهد المارة في الشـــارع ورأى المنازل المجاورة . فاذا طلع الــى السطح شاهد جبالا وشوارع ومنازل واناسا اكثر . فآذا حلق في طائــرة وقع نظره على اودية وبحار ومدن وسهول حتى مــد النظر ، ولكنه لم يشاهد الا النزر القليل ، ولم ير كل شيء . . . فهنالك ، وراء مرمى العين ، بلدان وقارات بعيدة ، وقصية عنه . وهيهات ان يقع نظره عليها !

فهل باستطاعتنا الزعم اننا نعرف المذهب معرفة كاملة ونحن لا نبحث ، ولا نصوب ، (و « لا نعلم ») وانما نحن قابعون في غرفتنا الضيقة المقفلة ضمن جدرانها المظلمـــة !

ان الكتاب الذي تجشمت عبء تعريبه يا سيدي الفاضل ــ احسن المولى اليك ! ــ ظــل طوال دهرين كاملين احد مراجع الاستخبار للفرنسيين ، ولسواهم من الغربيين ، الذين غازلتهم امانــي الاستفادة مــن ممراتنا ، وتجارتنا ، وصناعتنا ، منذ ذلك الزمان ، وخصوصا في حملة نابوليون على الشرق ، وفي فتنة السنــة الستين المشؤومة التي كنا جميعنا فيهـــا

حطب المحرقة لمطامع الاتراك والفرنسيين والانكليز. ولاحقاد المتزعمين الزمنيين والدينيين (١) في هذه الديار . ثم صار الكتاب المذكور مرجع استخبار للانتداب الفرنسي ، ولكن بدون جدوى .. وصارت نسخه نادرة جدا لا تصل اليه الايدي ، فلم استطع الحصول عليه على رغم من جدي في التفتيش عنه . ولم اعرف عن مراميه الا انه يثني على اللبنانيين ، ولا سيما على « الدروز » بيت القصيد فيه ، ويشيد بالحكم المعني ، فصار يشوقني الاطلاع عليه ، ولكن هيهات !

ومن غرائب « حظ » هذا الكتاب ان قراءه

---

١ - نشر الاستاذ يوسف يزبك سنة ١٩٣٩ كتابا بعنوان « ثورة وفتنة في لبنان » هو مخطوطة لانطون ظاهر العقيقي ، عثر عليها في احد بيوت كسروان وهي موضوعة باللغة العامية ، تتضمن من الحقائق عن اسباب « السنة الستين المشؤومة » ما لم يتسن للغايات السيئة ان تخفيه ، وعلق الأستاذ الوطني على المخطوطة تعليقات املاها عليه اخلاصه القومي ورغبته في توضيح ما خفي من الوقائع .

اعجبوا بـه في حين ان صاحبه (او بوجيه دي سان بيير الذي قيل انه صاحبه) لم يعرف لبنـان . وانما جمع معلوماته من مختلف المصادر ؛ وحرص على التغني ببطولة الشعب الصغير الاريحي فاحتطب من كل واد عصا ... ولسنا الان في هذا الصدد . ولكن اخشى ما اخشاه ان يكون صوته صوت عيسو ، ولمسه لمس يعقوب ، على ما روته التوراة في قصة اسحق .

وبعد ؛ فلنحاول الولوج ؛ متحررين من جميع القيود :

يعتبر مسلك التوحيد ، في جوهره وانطلاقه الاول ، محاولة عقلية لتفهم الايمان والحقائق الالهية، والتقرب تدريجا من الله ، ومشاهدته .

من هذا المنطلق قيل : رأس الايمان والتقوى معرفة الله .

ولعل امحوتب IMHOTEP العلامة الذي اختصر الحكمة المصرية ، والذي بنى هرم السقاره ، فرفعه المصريون الى مصاف الالهة ، كان اقدم « معلم » رجع اليه عقلاء التوحيد ، واعتبروه الاعتبار الاسمى حتى التقديس .

ولقب اليونانيون امحوتب بهرمس الهرامسة (اي

عالم العلماء) وغلب اللقب على الاسم الاصيـل حتى صار علما لصاحبه .

وفي بعض الكتب ان هرمس ((المثلث بالنبـوة والحكمة والملك هو الذي امر بالدعـوة الى دين اللـه والقول بالتوحيد وعبادة الخالق ، وتخليص النفوس من العذاب ، والحض على الزهد في الدنيـا والعمل بالعدل ، الخ ..))

وقيل في هرمس ايضـا : انه هو ، هو ، النبي ادريس الذي قص القرآن قصته .

والعلماء الذيـن يعنون اليوم بالروحانيات - في اوروبا واميركا ، يعتبرون هرمس اول من بحـث على الارض في معرفة الروح ، وحاول تفهم غوامضهـا . وقد انشأ هـؤلاء العلماء جمعية لهم فـي لوزان (١) تضم البحاثين الروحيين مـن جميع انحاء الارض . اطلقوا عليها اسم ((**اصدقاء هرمس**)) وهي تصدر كل سنة كتابين عنوانهما **هرمس** ، تنشر فيهمـا دراسات ونصوصا روحانية ، مع سجل عام يحتوي على احدث المطبوعات التي صدرت في هذا الموضوع .

---

1 - **Les Amis d'Hermés** LAUSANNE

اشرت الى ما تقدم ليعلم من يجهل ان المرجع الاول لعقلاء مسلك التوحيد هو الذي صار اسمه شعارا لعلماء الروحانية الحالية في العالم ، فمن حقنا، نحن اللبنانيين ، ان نعتز بهذا !

وبعد هرمس جاء حكماء كثر . في اليونان ، وفارس ، والهند ، والصين ، تاثروا تعاليمه وتاثروا بها ، واعتبرهم الموحدون اولياء مكرمين ، ومن ابرزهم تلاميذ فيثاغورس وافلاطون وارسطوطاليس ، ومن اليهم .

المذهب التوحيدي ميتافيزيكيا :

وباستطاعة من يحاول تفهم مسلك التوحيد ان يدرك مراميه بالرجوع الى مبدأ « الانبثاق المتتابع » لموضحه افلوطين الاسكندري الذي عاش في القرن الثالث بعد المسيح (٢٠٥ ــ ٢٧٠) وتلقح العرب بفلسفته الى حد بعيد دون ان يدروا (١) فافلوطين يذهب الى ان الحكمة ــ وهي ، هنا ، غير بعيدة أبدا عن جوهر التوحيد ــ واحدة في كل زمان ومكان، لا تتجزأ ولا تختلف في الجوهر . ذلك لان المصدر

---

١ ــ يوحنا قمير : ص ٦٢ و ١٠٥

(الله) واحد ، والعقل الارفع (ارادة الابداع) واحد ؛ والحقيقة واحدة ، ووحده الكشف عن **الحقيقة واحدة ، والروح واحدة ، والعقل البشري** في استيحائه من العقل الارفع هو ايضا واحد يدرك الحقيقة مباشرة في الله .

من نور العقل الارفع ابدعت الكائنات جميعا. وبهذا يبدو ان العقل الارفع هو العلة الاولى للوجود (علة العلل) : منه تنبثق الروح (النفس) ومن الروح تنبثق الكلمة ـ السابق ـ ، ومن الكلمة تنبثق النفوس الناطقة ، ومن هذه النفوس ينبثق التكوين (مادة الوجود) .

« الحمد لمن ابدعني من نوره ، وايدني بروح قدسه ، وخصني بعلمه ، وفوض الي امره ، واطلعني على مكنون سره » .

وكذلك استقى حكماء التوحيد من بعض مناهل مذهب العرفانية Le Gnosticisme الذي كان اتباعه يقولون بانهم « اوتوا معرفة طبيعة الله وصفاته معرفة كاملة ، متعالية » وهذا المذهب الفلسفي الديني استوحى من افلاطون اليوناني (٤٢٧ ـ ٣٤٧ ق.م.) ومن افلوطين الاسكندري الذي اشرنا اليه .

من راي أفلوطين ، مثلا : « **ان كل شيء صدر من الله الواحد بطريق الانبثاق المتتابع . وكل شيء اليه يعود بطريق اخر هو طريق الرجوع** » .

والله الواحد هو كل الاشياء . وليس هو احد تلك الاشياء .

« وتحديد الواحد حصر له : فليس هو احد الاشياء التي تصدر عنه ، ولا يمكن وصفه بوصف خاص : فهو ليس الموجود ، ولا الجوهر ، ولا الحياة. انما هو في تعاليه اسمى من ذلك كله ولا يستطاع تشكيله بشكل ما ، فهو فوق كل تعريف .

« ليس هو بفكر ، ولا ارادة ، لان الفكر يستلزم شيئين : مفكر (بكسر الكاف المشددة) ومفكر فيه (بفتح الكاف) . والارادة تستدعي الحالة غير الحالة التي هي فيها . وذلك امر اثنيني والله واحد . ولا نعرف سوى انه واجب الوجود ، تام الكمال ، لا يحتاج لشيء خارجي ، بل يفيض خيرا وينتشر ، فتتولد عنه جميع الكائنات التي تختلف كمالاتها بحسب قربها من ذلك الفيض الالهي ، او بحسب بعدها عنه .

واول انتاج لهذا التوليد هو العقل « نوس » ،

اكمل شيء بعد الواحد .

« والنفس تحتوي على العالم الحسي بالقوة . ومنها تصدر الموجودات ذات الاجسام . وهذا هو الانتقال من اللانهائي الى النهائي . فالله والجسم على طرفي درجات الكمال . ان الله واحد والجسم متعدد . بيد ان الجسم عليه الطابع الالهي لانه تشكل باشكال الله المنعكسة عليه . والكائنات ذات الاجسام مركبة من مادة ومن صورة : الصورة تتضمن حقيقة الموجودات ، والمادة هي الشيء الذي تكونت منه الاجسام » .

العودة الى الله :

هذا الانبثاق المتتابع ـ حركة التسلسل ـ تقابله حركة اخرى رجوعية : ففي كل شيء صدر من **الواحد** ميل قد يكون مبهما او مدركا بذاته انه يعود الى ذاك **الواحد** . وهذا الرجوع الى المصدر الالهي يحصل عن معرفة ، اذ ان لكل موجود كمالا . وبهاتين الحركتين ـ الصدور والنكوص ـ الانبثاق والعودة ـ يتجدد العالم الحسي على التوالي . وبحركتي الطرد والعكس تصدر الاشياء من النقص الى الكمال . **فهي**

من الله والى الله تعود . (فهمي : ص ١١٧ وما يليها) .

اما النفس المنبثقة من العقل الارفع فتتجه هي ايضا نحوه دائما (كما يتجه العقل الارفع الصادر من الله الى الله) .. وفي هذا يقول افلوطين ايضا :

« تصور نقطة مركزية تحيط بها دائرة مضيئة، وهذه الدائرة تطوقها دائرة اخرى مضيئة ايضا ولكن نورها مقتبس من النور الاول . وخارج هاتين الدائرتين دائرة ثالثة بعيدة عنهما ، ولكنها ليست مضيئة بذاتها وانما تستنير بضوء اخر ليس منها » .

ويقول افلوطين : « ان الكمال اصل الوجود . وكل موجود يميل الى الكمال ، فالعالم وجد للخير . اما الشر الذي نلاحظه في الكون فمصيره الى الزوال شيئا فشيئا وفقا لسنة الترقي من الناقص الى التام » .

... غاية الحياة ان تسعى لتعود الى التمتع بالمشاهدة الالهية بواسطة تطهير النفس . لذلك وجب ان تجرد ذاتها من الشهوات البدنية والميل

الحسي بممارسة الفضائل . ويقول افلوطين ان هذه الفضائل اربع : العفة والعدالة والشجاعة والحكمة .

« اغمض عيني جسمك وافتح عيني روحك ، تشاهد الجمال الازلي ، وتحظ بالخير المطلق . وبواسطة الانخطاف الروحي تتحد النفس بالله الواحد » (١) .

---

(١) ــ المراجع :

تاريخ الفلسفة من اقدم عصورها الى الان ــ تاليف حنا اسعد فهمي : المطبعة اليوسفية . مصر .

يوحنا قمير : اصول الفلسفة العربية (ط ٢) ــ منشورات المطبعة الكاثوليكية . بيروت .

La Philosophie de Plotin par Emile BREHIER
Librairie philosophique . Jevrin PARIS

وهذا الكتاب مرجع نفيس ، ولا سيما في فصوله الـ ٤ و٥ و٦ و٧ .

مذهب الدروز والتوحيد : تأليف عبدالله النجار ــ دار المعارف بمصر .

اضواء على مسلك التوحيد : بقلم الدكتور سامي نسيب مكارم ــ دار صادر ، بيروت .

وبعـــد ...

لعلي استطعت في هذه الخطرات السريعـــة ان أرسم صورة ، وان صغيرة ، عن التقارب بـــين مسلك التوحيد في انطلاقه الاول وجوهره ، وبـــين الفلسفة اليونانية (الافلوطينية منها بالتخصيص) حتى اصل الى جواب صريح ، صادق ، يرد علـــى السؤال الاتي :

ـ وهل مذهب التوحيد دين ؟

فأجيب : نعم . نعم . نعم ! وهو ، الى فلسفته وروحانياته ، يمتاز بفضائل انسانيـــة سامية ، ذات مسحة باطنية، عقلية ، تهدف الى الخير والمعروف . اهمها في نظر الموحدين : فضيلة الصدق ((**فهي الايمان والتوحيد كاملا**)) ، ومعها فضائل العفة ، وطهـــارة اللسان ، والقناعـــة ، وضبط النفس ، والترفـــع عن الدنايا ، الخ ...

واذكر لكَ ، هنا ، رأيا لصديقي الكاهن العالم الجليل ـ المسيحي الحقيقي ـ الاب يوسف يمـــين (أهدن) قاله لي وهو يتفضل بمساعدتي على تفهـــم

مذهب العرفانية ، قال حفظه الله :

ـ ((الصالحون جميعا ،ايا كان معتقدهم، يذهبون الى الله تعالى . ان وحدة الغايـة والوصول والالتقاء الاخير تشبه الهرم . ان الانبثاق المتسلسل ، فـي العودة الـى المصدر ، طرق عديدة ومنوعـة بسبب اختلاف الامزجة والامكنة والازمنة والتربية الاجتماعية وما اليها . اذا وصل كل صاحب عقيدة الى نهاية مطافه (اخر حدود عقيدته) صعدا ، فلا بد له مـن ان يصل الى قمة الهرم حيث يلتقي الذيـن وصلوا اليها على طرقهم الخاصة اذ اكملوا صعودهم في تعمق عقيدتهم ... الاختلاف ، اذن يرجع الـى تعدد الطرق . اما الغايـة (الالتقاء) فواحدة موحدة ..)) .

ولن نسمع انبل من هذا الكلام !

وبين مسلك التوحيد والاديان الاخرى توافق في اتجاهات واهداف كثيرة . لا مجال لبسطها فـي هذه العجالة .

ومعلوم ان الفاطمية نبعت من الاسماعيلية ، الشيعية ، الاسلامية ، ويقول الدكتور سامي نسيب

مكارم (١) في هذا الصدد : « ... استجاب هـــذا المسلك التوحيدي الى الاسلام واندرج فيه ، غيـر **انه كان مستبطنا ايضا في الشرائع التـــي تقدمت الاسلام »** .

واستجابة معتقد التوحيد للاسلام كانت ، على الاخص ، في العهد الفاطمي . والخليفة الحاكم بامر الله رعاه . وانبرى لتوجيهه وتنظيمه داعيته الاعظم ، حمزة ، القائد الفذ الذي طور الانبثاق المتسلسل كله في تعاليمه ورسائله وكان السند الاقوى للمذهب . ثم اكمل التوضيح والتوجيه الداعية العبقري الشيخ بهاء الدين علي الطائي في رسائله . وهو ركن بين واضعي الفلسفة التوحيدية .

---

(١) « اضواء على مسلك التوحيد » : ص ٨١ ، وفي هذا الكتاب ايضا يقول لنا المؤلف ان أســـم امحوتب ورد في احدى المخطوطات معربا هكـذا : « ذي امحت به » ــ ص ٤٩ ــ فلتقارن بكلمة « ذي معة » التي تشير الــى الامام الجليل قائم الزمان ..

كان من الحق ان اذكر موضوع التقمص وهو من صلب المعتقد ، وموضوع التصوف ، والعلاقة باخوان الصفاء ، وما يتبع هذه المواضيع الخطيرة من اراء فلسفية يقف الفكر امامها خاشعا ...

ولكنني اطلت ، والمطلوب تقديم الكتاب لا الاشتراك في تاليفه !

بقي في نفسي ان اشكر لك يا سيدي الفاضل عملك الكريم في هذا التعريب . بيض الله وجهك ، وقواك في اتباع سيرة العباقرة من ال ابي مصلح الاكرمين . ورجائي ان يقدر الموحدون جهدك !

باريس ــ الحدث **يوسف ابرهيم يزبك**

ايها الاخوان ،

ان ما نرمي اليه ، من نشر هذا الكتاب ، هو ان نسني لابناء عشيرتنا الالمام بصفحة من تاريخ الدروز يجهله الكثير منهم ومن الموطنين الاخرين ، راجين ان يكون لهم من ذلك فائدة ، وان يكون هذا العمل دافعا لغيرنا من الاخوان ، الى نقل كل ما يقال فينا بصدق واخلاص ، فلا نبقى على جهلٍ بما يكتب عنا ، ولا سيما في الخارج .

لقد كلفنا هذا العمل جهدا ومثابرة استغرقت الكثير من وقتنا ، وخصوصا ان احدنا الذي تولى الترجمة، كان يكثر من البحث والمراجعات، والتدقيق كي يخرج الكتاب مستوفيا الشروط ومؤديا الفائدة التي نرجوها لقومنا خاصة ولوطننا بصورة عامة ، لان الفترة التي تناولها المؤلف بالبحث كانت صفحة مشرقة من تاريخ لبنان ، يكفي انها جمعت اللبنانيين كلهم ، على هدف واحد هو تعزيز كيان لبنان . وثقتنا بان القراء على مختلف مذاهبهم ، سيجنون فائدة جليلة ، هونت علينا العمل ودفعتنا الى بذل المجهود في سبيل الغاية النبيلة ، التي هي ابراز حقيقة التاريخ المعني الكريم ، وذلك عن طريق ما يقوله فيه كاتب غريب لا يمكن ان ينسب اليه التغرض او الانحياز .

ان لسان الدروز ليسكت عن التحدث بافعالهم واعلان مآثرهم ، وان يكن لم يسكت يوما عن قول الحق . وعسى ان ينال عملنا في نشر هذا الكتاب ، الرضى والاستحسان لدى العموم ، لان فائدته للعموم .

الناشران

مقدمة المؤلف

حين آليت على نفسي ان انير القراء ببعض المعلومات عن شعب تهم الفرنسيين معرفته دون شك ، كانت امنيتي ان ارضي رغبة الوطن واحقق امال المسؤولين .

ووطن الدروز ، الرائع فى طيب مناخه ، وخصب ارضه ، وجودة محصولاته ، وحكمة دولته ، يضع امام المرء صورة واضحة عنه تعطي فكره وقلبه ايضا ، منافع ثمينة .

والتفصيل الصادق عن مختلف حالات هذا الشعب ، منذ نشأته ، وعن الثورات التي اوقد نارها ، عمل مفيد يجب ملاحقته لانه يرضي فضول القارىء ارضاء تاما .

والصعوبات الجمة التي جعلت اتمام عمل كامل لهذا المخطط نوعا من المستحيل ، حملتني على كتابة هذا الموضوع بشيء من الايجاز .

وسأوضح فى الكتاب الاول على الاقل أصل الدروز (١) متحدثا عن بعض الثورات التي كان لها تأثير شديد فى تبديل مقدار ثرواتهم . اما فى الكتاب الثاني فسأحاول ان ابين وضعهم الحاضر ، على ان اعالج فى الكتاب الثالث مختلف نواحي تجارتهم

---

١ ــ صرفنا النظر عن الجزء الاول وعنوانه « اصل الدروز » لما اعتوره من اخطاء تاريخية وما تضمنه من معلومات مغلوطة لا تستند الى اساس من الصحة .

كي اظهر اهميتها بالنسبة لفرنسة (١) .

ويرجع الفضل ، فى العناية بتاريخ الدروز ، الى بعض العلماء المتعمقين فى اللغات الاجنبية الذين بحثوا فى المخطوطات اليونانية والعربية والسريانية فتوصلوا الى استكشاف الخيط الاول الذي مكن من الالمام بكل التفاصيل عن هذا التاريخ .

وما كنت اريد قوله هو ان تاريخ الدروز كان مزيجا من آراء مختلفة لبعض المؤلفين المشهورين الذين كتبوا بلغتنا الفرنسية .

وبما ان هذه الابحاث لم تكن كافية لابراز هذا التاريخ والكشف عن حقيقته فقد اعتمدت ايضا على مذكرات قيمة وضعها ابن اخت بطريرك انطاكية (٢) الذي عاش فى بلاط الامير الدرزي . وتلك الابحاث ، مع ابحاثي الخاصة ، سهلت لي معرفة الشعب الدرزي الجدير باهتمامنا .

بيجي ده سان بيير

---

١ ـ يتضح من هذه الجملة ان فرنسة كانت تنظر الى لبنان ، منذ القديم ، نظرة الطامع وتهتم بجميع المعلومات الدقيقة عنه ومن طبيعته ومزايا اهله كي تضع الخطط ، على اساس هذه المعلومات ، لبسط سيطرتها عليه والاستفادة من موقعه .

٢ ـ البطريرك الذي يعنيه المؤلف هو البطريرك جرجس عميره الماروني الذي تولى منصبه سنة ١٦٣٣ ، اما اسم ابن اخته فهو سركيس الجمري وهو صاحب المذكرات ، وكان من خريجي المعهد الماروني في رومة ورسم كاهنا سنة ١٦٣٥ ، وشغل منصب مطران دمشق ومطران قبرص .

تكــــاثر الشعب الــدرزي وتوسعه

كان لابد للشعب الدرزي ، الذي نشأ على الحرب واستمر في محاربة السلطان المصري الذي انفصل الدروز عن حكمه ، من ان يتكاثر وينمو مع كر الايام •

وكان هذا الشعب منهمكا ابدا اما بالنشاط الزراعي فــي السهول كي يوفر لنفسه سبل العيش واما بمطاردة العربان كلما هاجموه بقصد الغزو والسلب •

وكان نظامه شعبيا ، فقد اختار قوادا للشرطة الداخلية ، وآخرين للحروب • وكان عدد الجنود يزداد بنسبة تكاثر الذكور فيه ، وكان هم الاولاد الدروز ، منذ نشأتهم الاولى ، ان يتمرنوا على الحروب ، ويتدربوا على استعمال السلاح •

واول عهد نعم فيه الدروز بالراحة كان في ايام الحملــة الصليبية في آسية ، حوالي اواخر القرن الحادي عشر • ولكــن سرعان ما سبب هؤلاء الصليبيون لهم ــ كما سنرى ــ خــوض اشد الحروب وحشية ، واكثرها سفكا للدم •

وبعد مضي قرن تقريبا جعل الصليبيون والكفار (١) الارض المقدسة مسرحا لحروبهم • واستمر الفريقان في الحرب ، حيث كان يحالف النصر هذا مرة ويمنى بالهزيمة ذاك مرة اخرى ، والعكس بالعكس ، مدة من الزمن •

---

١ ــ يعني المؤلف « بالكفار » ، المسلمين ! •••

واخيرا طردت القوات المصريةالصليبيين ، فعادوا الى المرافىء التي اقلعوا منها مفعمين بالغبطة ، اذ تيسر لهم الانضمام الـــى عيالهم ، ولكنهم كانوا يندبون انكسار القوات المسيحية .

***

لم يكن الرضى يعم جميع الفرنسيين ، وقد نقلنا من قبل عن لسان احد المؤرخين ، ان فرقة كان يقودهـا « الكونت ده درو » (١) كانت تقوم بدور الحامية للقــوات الصليبية . ثــم اضطرت الى الاعتصام بالجبال ، هربا من العبودية ، بعــد ان طاردتها وحدات الاعداء الخفيفة .

وكان جبل عين جدي (٢) اول مكان لجأ اليه هذا القائــد ، اما بعامل الحكمة او بتأثير الضرورة الملحة .

وهناك تحصن مع رجاله الشجعان ، وتمكن من تعزيــز قواته ، وهو الذي عرف ، بقدرته ومهارته ، كيف يفقد الاعراب املهم فى اخضاعه . وانقضت سنوات عدة والفرنسيون الاقوياء ، الثابتون فى موقفهم ، يمنون النفس بوصول نجدة صليبية . ولكن طول الانتظار قضى على امنيتهم البراقة هذه ، فتركوا مركزهـم ، وراحوا يتنقلون من تلة الى تلة حتى وصلوا الى جبل لبنـان . وعندما رأوا انفسهم جيرانا للدروز فكروا فى السعي لمحالفتهم ، وقد نجحوا فى ذلك دون عناء لان شهرتهم كانت قد سبقتهم ممـا جعلهم يتوقعون قيام احترام متبادل بينهم وبين الشعب الدرزي

١ ـ الكونت « ده‌درو » هو قائد الفرقة الصليبية التي لجأت الى جبال لبنان ، نازلة في حمى الدروز ، مما حمل بعض المفسفين ... على نسبة الدروز اليه ..

٢ ـ هذه المنطقة كانت مشهورة في ايام سليمان الحكيم بالكروم ، وقد ورد ذكرها في التوراة « نشيد الانشاد »

المشهور (١) .

وسرعان ما اصبح الشعبان وكأنهما شعب واحد ، يعزز تآلفه ، الحقد الشديد على العدو المشترك الذي تعاون الدروز والفرنسيون الطارئون على محاربته .

وقد مكن اواصر هذا التآلف ، الود الصادق المتين والوحدة المتماسكة التي نشأ عليها الدروز وتأصلت في جميع القلوب .

والصداقة الصافية التي ربطت بين الدروز والفرنسيين الذين نزلوا في جوارهم ، هي التي حملت ، دون شك ، بعض المؤرخين على الانخداع باصل الدروز الحقيقي فراحوا يصورونه كما تملي عليهم اوهامهم دون ان يكلفوا انفسهم عناء البحث والتدقيق (٢) .

ويكفي ما نتج عن هذا التحالف من النفع انه اوقع الرعب في قلوب الأعراب فكفوا عن الغزوات وشن الغارات التي تسبب المناوشات الدامية ، وذلك بعد ان لقنهم جنود لبنان درسا قاسيا في معارك عنيفة برهن فيها الدروز عن شجاعة وحنكة .

---

١ ـ ان الشعب الدرزي يقدس حرمة الجوار ويبذل الانفس في المحافظة على جاره ايا كان ، وهناك ادلة كثيرة على ذلك

٢ ـ الدروز انقى العرب دما . وقد حافظوا على نقاوة العرق بعدم اختلاطهم بالشعوب الاخرى عن طريق التزاوج ، وهم العرب الاقحاح الذين يرجع نسبهم الى القبائل اليمنية « طي ولخم وجذام » ومعظم الاسر الدرزية في لبنان ما تزال تعرف انسابها وتسلسل تحدرها . فاسرة ابي مصلح مثلا ، تنتمي الى طي ، وقد ورد بين اسماء افرادها اسم « الشيخ دغفل ابي مصلح » ، و اسم « دغفل » كان محصورا بقبيلة طي ، ومن المعروف ان هناك اسماء يقتصر استعمالها على قبيلة مخصوصة ولا تستعملها قبيلة اخرى .

وبعد ان امست مساحات المغاور (١) لا تتسع لايواء شعب يزداد عدده مع كر الايام ، اقر هذا الشعب ان يتخذ مراكز جديدة في السهول ، ولا سيما بعد ان شجعته انتصاراته المتتالية على ذلك . وكانت منطقة « درو » الواقعة على مقربة من نبع الاردن قرب جبل لبنان ، اول بقعة سيطر عليها الدروز وثبتوا اقدامهم فيها .

واعتمادا على الحقوق التي حصل عليها حلفاؤهم في الارض المقدسة ، فكر الدروز في التوسع بالنسبة الى عددهم الذي يتكاثر وقوتهم التي تزداد .

وعلى اساس هذه الحقوق ذاتها ، توصل الصليبيون الى تغيير نظام الحكومة الدرزية ، فاقنعوا الدروز بان النظام الفردي هو افضل نظم الحكم، لانهم ـ أي الصليبيين ـ ألفوه، فكان الاتفاق عاما وعهد في الصولجان الى نبيل فرنسي متحدر من اسرة « بوربون » (٢) .

وقد جعل الحكم وراثيا ، منذ ذلك الحين ، بحيث لا يخرج

---

١ ـ ربما كان المؤلف يعني « بالمغاور » الارض الجردية المنيعة التي كان الدروز يتخذونها منازل لهم ، لكثرة الحروب في تلك الايام ، ولا سيما ان سكان لبنان لم يكونوا يسكنون المغاور في العهد الاخير .

٢ ـ يحاول المؤلف هنا ان يوهم القراء ان الدروز اسسوا مع الفرنسيين دولة واحدة ، خضعت لقانون واحد ، واتبعت نظاما واحدا . وهذا محض اختلاق يراد به التفريق بين الدروز واخوانهم الوطنيين . فالمعتقد الدرزي يحول دون هذا الائتلاف الذي تخيله الكاتب . ثم ان الاباء الذي اشتهروا به يجعلهم يرفضون ان يتولى امر الحكم عليهم رجل غريب . ولا سيما انه من المعروف تاريخيا ان الدروز اختيروا من قبل الخليفة العربي لصد هجمات الاجانب المتتابعة على لبنان ، بقيادة اميرهم التنوخي . ومنذ ذلك الوقت رسخت اقدامهم في هذا البلد واسسوا دولتهم التي بلغت في عهد فخر الدين اوج مجدها .

من اسرة الملك الاول •

العلاقات بيـــن سلطان مصر والـــدروز

اما سلطان مصر الذي ثقل عليه ان يرى في قلب امبراطوريته عدوا شديد المراس ، يتغلب ابدا على مجهوده ، فقد عزم علـــى تقديم مقترحات الى الدروز لاقامة سلم بينه وبينهم على اساسها • وارسل اليهم الرسل طالبا منهم قبول صداقته وحمايته ، علـــى شرط ان يعترفوا بحكمه من جديد ، ويدفعوا جزية كالجزيـــة المفروضة على الاعراب •

وقبل الدروز مقترحات السلطان ، غير انهم اشترطوا ان تترك لهم ملكية الارض التي استولوا عليها ، ويعترف لهم رسميا بذلك •

وبدا للدروز ان حماية سلطان قدير ، تفسح لهم مجـــال التنعم بايام سلم وهناء ، ولكن الواقع كان غير ذلك ، اذ سرعان مافقدت ممتلكاتهم من جديد الامن والهناء • وكان الدروز قد بدأوا يتنكرون (كذا) للشريعة المحمدية اشد التنكر ، وذلـــك عندما اخذت قوة الفرنسيين تشتد وتتعاظم • وكان من « الفخر عندهم ان يدعوا المسيحية » (كذا) (١) وهـــذا يكفي لحمـــل

١ – هراء يدرك مغزاه كل ذي بصيرة ، فالدروز ما كانوا يوما يتمذهبون بغير مذهبهم مهما اشتد الضغط ، وسنرى في ما بعد كيف يناقض المؤلف نفسه بنفسه وهو يثبت ان الوطن الدرزي كان يتسع لجميع الديانات ، وكانت الوحدة قائمـــة بين السكان على امتن ما يكون من الاسس ، ثم كيف يتظاهر الدروز بالمسيحية وهم اصحاب البلاد واصحاب السلطة فيها والصليبيون طارئون ونزلاء الى وقت ، وهل يعقل ان يستجير المجير بالمستجير ؟ .. لقد كان عليه ان يقول يتعاونون والمسيحية لا يدعونهـــا .

المسلمين على الجور عليهم .

والدروز اعداء حقودون ، وكانوا لا يذكرون العرب المسلمين الا تعتريهم الرجفة ويشعرون بالهول ... وقد اشتدت العداوة ، بعد ان رفع المسلمون (كذا) ، قيمة الجزية ، فجهز الدروز جيشا لمحاربتهم دون ان يعرضوا الامر على البلاط المصري ناسين انهم تحت سيطرته .

وكعادتهم جعلوا من المعركة مجزرة رهيبة ، حيث احرزوا انتصارا عظيما وغنموا غنائم كثيرة . وعبثا حاول سلطان مصر ان يفرض عليهم سلطته ، وهم المنتشون بخمرة انتصاراتهم الجديدة ، الواثقون من كفاية قواتهم وقدرتها على الثبات فى وجهه ، فرفعوا علم الثورة عاليا ، لايهابون حتى هذا السلطان الذي كانوا خاضعين له .

لم تكن القوة الحربية متساوية ، فجحافل السلطان الجرارة التي تمكن من ارسالها الى المعركة كانت كافية لاخضاع الدروز دون عناء .

ولما كان من الواجب ان تتعادل القوى فى مثل هذه الاحوال عاد الدروز الى اماكنهم الحصينة واتخذوا منها مراكز للدفاع ، وراحوا يمزقون جيش السلطان فرقة بعد فرقة .

وفى تلك المناطق الوعرة رأينا الدروز من جديد يحافظون على قوتهم وشجاعتهم معتمدين على الحيل الحربية لدى كل حملة ، وهكذا كانوا يخرجون ابدا بالانتصالارات الباهرة .

وكان من المخزي لحاكم كبير ، ان يعجز عن اخضاع شعب ،

ليس سوى حفنة من الرجال اذا قيس بجيشه ، ولكن روح الاستقلال التي تأصلت في نفوس هذا الشعب ، كانت عاملا جديدا للاضطراب والقلق مما افقد السلطان امله في اخضاع الشعب الدرزي والسيطرة عليه .

والحملة التي ارسلها السلطان العثماني الى مقاطعات سلطان (١) مصر ، وقفت مشاريع الاخير المعدة لمقاومة العصاة ، لانه كان في حاجة الى جمع قواته لصد هجمات الاتراك ، ولذلك امر القوات التي جاءت تغزو جبل لبنان بالعود الى مراكزها .

وسرعان ما عاد الدروز ، بعدئذ ، ينتشرون في السهل الخصيب الغني الذي يحمل اسمهم .

وهذا البلد الذي يسكنه شعب محارب شديد المراس ، يزداد عدده باطراد ويساعده موقعه على توفير الهدوء والسلام لاهله ، قد ساده السلام فعلا بعض الوقت ، على الرغم من ان الدروز استمروا ، كعادتهم ، يعمدون الى الانتقام السريع اذا ما وقع عليهم اي اعتداء .

وخطة الانتقام هي افضل ما يعتمده شعب ناشىء لا يمكنه ان يوفر لنفسه من الاحترام الا بقدر ما يزرع من الرعب في قلوب الطامعين .

---

١ ـ هو السلطان قانصو الغوري الملقب بالملك الاشرف . انكسر الغوري في معركة مرج دابق سنة ١٥١٦ بعد ان تراس جيشا قادما من مصر ، وقد سقط عن فرسه ثم قطع راسه واختفت جثته بين القتلى ، بعد ان انقلب عليه اعوانه انفسهم وامراء ولاياته منضمين الى السلطان سليم العثماني مع الامير فخر الدين المعني الاول ، والامير جمال الدين التنوخي وعساف التركماني ومنصور الشهابي .

اول اصطدام بين الدروز والاتراك

فى تلك الاثناء كانت فلسطين قد سقطت تحت الحكم العثماني • ورأى الاتراك ان يختبروا قوتهم فى محاربة الدروز ، غير ان هؤلاء لم يفقدوا شيئا من بأسهم ، ولا من قدرتهم على مقارعة العدو الجديد ، مستغلين طبيعة ارضهم ابرع استغلال ، مدافعين بكل قسوة ونشاط وثبات ، حتى ارغموا اعداءهم على الانسحاب بعد ان اصيبوا بخسائر كبيرة •

وعندئذ فكروا فى تحصين مداخل حدودهم ،وجعلوا قصارى جهدهم ان يحققوا هذه الغاية ، وقد كان ذلك مشروعا جريئا اثار حفيظة البلاط العثماني • وما كاد الخبر يتصل بالسلطان سليم الثاني حتى عقد النية على اخضاعهم ، فسير اليهم سنة ١٥٧٤ جيشا عرمرما اشتبك معهم فى معركة عنيفة لم تكن نتيجتها باحسن من نتيجة المعركة السابقة •

وذهب مجهود الامبراطورية سدى ، وخرج الدروز في النهاية منتصرين بعد ان خسر الاتراك عددا ضخما من جنودهم الذين فروا امام جنود لبنان ، مما حمل الامبراطورية على صرف النظر عن مواصلة هذه الحرب •

ولكن المهادنة لم تكن طويلة الاجل ، لان منتجات مقاطعة الدروز الذين تزايد عددهم باتت لا تكفيهم لتوفير اسباب المعيشة، فعادوا الى شن الغارات على البلدان المعادية ، ناشرين الرعب ، ظافرين بالغنائم مسببين الاضرار • فثار الباب العالي من جديد ،

وعزم على اخضاع الدروز او ابادتهم مهما كلف الامر .

ولهذه الغاية ، رأينا ابرهيم باشا (١) يتقدم سنة ١٥٨٨ ، من القاهرة الى فلسطين على رأس جيش ضخم كامل العتاد . فلم يبق عندئذ سبيل لمقاومة تلك القوى المتحدة . فخضع الدروز لحكم الامبراطورية العثمانية ، وابدوا فروض الطاعة . ولكن الغرامة التي فرضت عليهم كانت باهظة وفاقت ما كانوا يترقبون .

فلقد كان عليهم ان يقدموا عرشا من الذهب الخالص يقدر بستمئة الف دينار ذهبا ، بعث به ابرهيم باشا الى السلطان مراد (٢) فى قسطنطينية .

وتذكر الرواية ايضا ، ان هناك هدايا ثمينة ساقها هذا القائد الى السلطان ، علاوة على العرش .

---

١ ــ ابرهيم باشا ، هو اول وال من قبل السلطان العثماني ، على مصر .

جاء ابراهيم باشا من مصر الى لبنان ، على راس جيش قوي ليرغم الدروز على دفع الاموال التي نهبها بعض اللصوص في جون عكار ، من قافلة كانت تحمل مال الدولة السلطانية الى استانة . وكان هؤلاء اللصوص قد دخلوا الشوف الذي يحكمه الامير قرقماز ، ونجوا دون أن يلقى القبض عليهم .

استسلم لابراهيم باشا جميع الامراء ، ما عدا الامير قرقماز ، فقد قاومه مقاومة باسلة ، دفاعا عن الكرامة ، لكنه غلب على امره اخيرا فالتجا الى مغارة شقيف تيرون قرب نيحا .

وتوفي سنة ١٥٨٤ تاركا لامراته الاميرة نسب التنوخية ولدين هما يونس وفخر الدين .

دعا ابراهيم باشا اليه عقال الدروز ، فتوجهوا الى عين صوفر لمقابلته ، فغدر بهم وقتل منهم ما يزيد على خمسمائة رجل ، ثم تابع طريقه الى استانة مع الامراء الذين استسلموا اليه غير ان السلطان عفا عنهم جميعا .

٢ ــ مراد الرابع : سنة ١٦٢٢ ــ ١٦٣٩ . لم ينجح في محاربة الفرس الا حين قاد الجيوش بنفسه . وقد استرجع بغداد سنة ١٦٣١ فدخلها كما دخل الاسكندر بابل لابسا فروة نمر .

من هنا ، يمكننا ان ندرك الغنى الذي احرزه هذا الشعب المنعزل ، الذي اثرى دون ان يتعاطى اية تجارة ، وذلك يدل على المدى الذي وصلت اليه الدولة فى حسن ادارتها والازدهار الشديد الذي حققه الموطنون فى صناعاتهم .

ونعم الدروز من جديد بسلم وطيد ، بعد ان صاروا من دافعي الجزية ، ولكن هذا السلم لم يصرفهم عن مشروعاتهم التوسعية بل على العكس من ذلك ،فقد شجعها وغذاها . وجاءت السياسة تعزز فكرتهم ، فقد عرضوا على السلطان ان ينظفوا المقاطعات من الاعراب الذين يقلقونه .

وكانت تلك الحجة المموهة ، السبيل الذي توسعوا عن طريقه نحو البحر وكان امتلاك الشواطىء فى الحقيقة غاية ما يرمون اليه من توسعهم لانه الوسيلة الوحيدة التي تؤمن لهم المنفذ الخارجي والتجارة .

وقد تحققت امانيهم بعد انتصارهم على الاعراب ، وتمكنوا من ان يستولوا على المقاطعات التي كانت تتقاسمها اسباط عازر وزبولون (١) ونفتالي (٢) فى اعالي الجليل واسفله ، وما وراء الاردن المأهول .

بداية عهد فخر الدين

كان الدروز قد بلغوا حدا قصيا من القوة ، عندما ورث

١ ـ زبولون ، هو سادس ابناء يعقوب من لينا . واليه يرجع نسب احد اسباط اسرائيل . وبلاد زبولون هي منطقة في شمال فلسطين .
٢ ـ نفتالي : ابن يعقوب ، اسس سبطا من اسباط بني اسرائيل ايضا

فخر الدين منصب الامارة بعد موت الامير معن (١) الذي تسلم الحكم قبل سنة ١٦٠٠ بسنوات قليلة .

اعجبت كل الاقطار في آسية واوروبة بهذا الامير الذي لقب « بالكبير » وكان اسمه يقترن بالنصر والعظمة .

ولم يكن فخر الدين قد بلغ السابعة (٢) عندما نصب اميرا ، ولكنه كان ذكيا ، فطنا متمتعا بالحكمة والمقدرة الفائقة ، فعكف على العلوم الادارية ينهل من معينها ، ويتثقف بسياسة الحكم ، حتى تمكن في سنوات قليلة من القيام بالاعمال المنوطة به .

وكانت المواهب التي منحته اياها الطبيعة ، تدفعه بخطى سريعة نحو الميدان السياسي الذي شغف به ، وسرعان ما استطاع ان يحكم بنفسه ، فأبدى مقدرة فائقة في تسيير دفة الحكم في وسط هالة من العظمة والقوة .

وكانت السياسة التي اتبعها اسلافه الامراء ، والمخططات الحكيمة التي ساروا عليها ، ترضي طموحه البعيد المدى ، فاستلهمها واتبع منهجها .

وكانت القدس الغاية التي اتجهت نحوها آماله ، فاسترجاع صولجان هذه المملكة المنتزع من اجداده ، كان هدفه الاساسي ،

---

(١) الحقيقة ان فخر الدين ورث الامارة بعد موت ابيه قرقماز ، لا بعد موت الامير معن كما يروي الكاتب .

(٢) جاء في تاريخ بليبل ، و الشيخ شيبان الخازن انه بعد وفاة الامير قرقماز ، كان الامير فخر الدين طفلا ، فحمله احد مشايخ آل ابي مصلح من عين كسور الى احد اصدقائه مشايخ آل الخازن في قرية البلونة ، حيث تعهده بالتربية حتى شب ، وصار قادرا على ادارة شؤون الامارة ، فنصب اميرا . ـ اختلفت الروايات في سن الامير فخر الدين وقت تسلم الحكم ، ولكن اصح ما قيل ، انه كان يبلغ الثامنة عشرة .

وشغله الشاغل ٠
وكانت رغبته فى استعادة هذه المملكة سبب الحروب التي خاض غمارها ، محرزا الانتصارات ببسالته التي استرعت الانتباه٠

كان فخر الدين يخفي مشاريعه التوسعية بالحجة ذاتها التي تذرع بها أسلافه ، فقد جهز جيشا لمقاومة الاعراب يقوده بنفسه ، غير متوان عن محاربة رجال العصابات الذين كانوا ينهزمون امامه فى كل غارة ، متراجعين الى حدود ارضهم بخسائر فادحة ٠

لم يكن هناك من يجرؤ ان يشكوه الى البلاط العثماني ، بعد ان عرف ان الاتراك فى حاجة اليه ليقيهم شر عصابات الاعراب، ويخلصهم من الغرامات التي كانوا يفرضونها عليهم ، فقد كان فخر الدين بالنسبة الى البلاط العثماني ، المنقذ الكبير ٠
لهذه الاسباب اصبح فخر الدين حديث رجال الديوان السلطاني ، يمتدحونه ويبدون اعجابهم بمزاياه الفريدة ٠

وكان هذا كافيا ليؤلب حوله الاعداء الاقوياء الثابتين . فى كل العصور وكل المناسبات ،والحسد يقودعادة الى الظلم الوحشي٠ والعظماء انفسهم يفسدهم فى بعض الاحايين هذا المرض القتال اذا تمكن من نفوسهم ٠ فقد كان يؤلم الخصوم جدا ان يقوم شخص كبير ينافسهم ، طامسا أسماءهم ، فتألب عليه الباشوات بدافع الحسد وراحوا يدبرون له المؤامرات بعامل من حقد لا يعرف اللين ، وقد بدأت دسائسهم تمثل دورها الكبير ، حين وجدوا السلطان يحترمه ، قادرا انتصاراته ، معترفا له بالجميل ٠
وسرعان ما سار قاهر الاعراب المشهور بجيشه الى بيروت ٠ فموقع هذه المدينة، واهمية مرفأها، جعلاه يدرك ضرورة الاستيلاء

عليها ، والافادة التي يحصل عليها بافتتاحها ، فضمها اليه متخذا منها مكانا لاقامته ، ومركزا « لامبراطوريته » .

وفي وقت قصير اعيد بناء بيروت في شكل جميل ، وأهلت بالسكان ، واتسعت شهرتها . وبيروت هذه ، وان لم تكن دوما مركز حكومات فخر الدين ، فقد كانت على الاقل « مخزن » ثروته وهيكل نعماه .

ان القصور الرائعة التي شيدها الامير في بيروت ، والحدائق الغناء التي انشأها بذوقه ورعايته وعنايته ، كانت تعلن عن عظمته وجلاله وبعد نظره .

التوسع في التجارة الخارجية

اما « صيدون » القديمة ، الملقبة اليوم بصيداء ، فقد برزت لفخر الدين موضوعا آخر أهلا للبحث والنظر ، فاستولى عليها وراح يرفع اسوارها ، ويبني قصورها ، ويتعهدها بالتجميل البديع ، ويعيد انشاءها على شكل اخاذ .

ثم انه شيد فيها مبنى مرتبا ، مؤلفا من مئتي غرفة للتجار المسيحيين ، وبنى مخازن من جميع الانواع لبضائعهم ، لكي يستجلب اليه تجارة اوروبة ، ويستهوي تجارها . وقد نجحت مساعيه في ذلك كل النجح اذ سرعان ما هرع المغاربة واليونانيون واليهود ، زرافات ووحدانا ، وهم العالمون بجودة منطقة صيداء .

ولكن الذي ساعد كثيرا على تسابق الاجانب للتجارة مع الدروز ، هي حكمة فخر الدين السياسية التي سمحت بحرية

المعتقد فى جميع انحاء دولته . (١)

جرت هذه الاعمال جميعها دون ان تمر فى ذهن السلطان اية شبهة ، لان فخر الدين عرف بذكائه ويقظته كيف يتجاوب مع الديوان فى الباب العالي ، محطما بذلك كل الدسائس والمؤامرات التي كان يدبرها اعداؤه .

ان وشايات الباشوات الدنيئة ، كانت لا تصل الى العرش ، بعد ان اخذ الامير يزيد قيمة الجزية ، كلما ازداد توسعه .

كانت تلك السياسة ذات وجهين ، كلاهما رائع . الاول هو اعطاء السلطان العثماني الدليل الواضح على الامانة الظاهرة ، والثاني جعل الامبراطورية العثمانية تقف مطمئنة لامتلاك الولايات التي يستولي عليها فخر الدين ، والحؤول دون مقاومة البلاط له ، ما دام هذا التوسع الذي يحرزه الامير يؤمن للبلاط العثماني ضريبة تفوق اية ضريبة يقدمها اشد ولاة السلطان المقربين

وبعد هذه الاعمال الناجحة ، اذاق الامير فخر الدين شعبه حلاوة السلم لسنوات طويلة متتالية .

كان هذا الامير ، المهتم اهتماما شديدا ، بالامور الداخلية ، والمنصرف الى تحسين احوال حكومته ، يدرك ان الدول تأخذ من التجارة اقصى قوتها ، ومن الفن كل رونقه وجلاله .

ولاقتناعه بهذه الحقيقة ، منح التجارة حماية فائقة ، وقام بكل الخدمات التي تجذب الاجانب الى مرافئه .

وكانت الحماية ذاتها ممنوحة للفنون . فالثقة بالمكافأة الاكيدة

---

(١) هنا يكذب الكاتب نفسه ، فيعترف بان الدروز — على عكس ما قاله سابقا — سمحوا بحرية المعتقد ، فلم يفرقوا بين الاديان ، ولا مالوا الى فئة دون اخرى ، بل حققوا الوحدة الوطنية التي تعتبر اساس كل دولة تسعى الى توطيد استقلالها .

على التطور ، لم تشجع فقط الصناعة فى حضن دولته ، ولكننا رأينا اربابالفن المهرة من البلادالاجنبية، يهرعون اليه ويتسابقون الى العيش فى كنف رعايته وحرصه على تقدم الفن .

والفرنسيون كانوا اول من ملأت اشرعتهم مرافيء فخرالدين، وكانوا أحب الاجانب اليه والى شعبه ، والارباح الفاحشة التي جنوها من تجارتهم كانت الدافع الذي جعل غيرهم من الشعوب يتسابقون الى دخول المرافىء اللبنانية .

وفى وقت قصير ، وجد الدروز انفسهم يتعاملون بالتجارة مع كل الاوطان الاوروبية وقد قام فخر الدين بزيارات عدة الى ايطالية لكي يختار اشخاصا متخصصين بميادين شتى .

وكان فى كل مرة يعود من سفره يأتي بالمهرة من ارباب الفن زيادة فى عناية الدولة ، ورغبة فى نشر الرخاء فى ارضه والالفة بين مختلف افراد شعبه .

والضرائب التي يجبيها كانت باهظة ، ولكنها تختلف حسب اهمية الانتاج ، فقد جعلها نسبية ، تخضع لدراسة كاملة ، بحيث لم يكن هناك شخص يتذمر من غبن لحق به . اذ لم تكن تلك الضرائب من النوع الذي يضنك الشعب ، ويبعث على التذمر من طريقة توزيع الضرائب ، وعدم عدالتها . وغش الجباية وقساوتها ، يولدان كره للعمل والكسل ، واماتة الاعمال المثمرة .

كان فخر الدين يجبي من الضرائب نحو مليونين ، ولايدفع للسلطان منها سوى ٦٠٠٠٠٠ درهم . والعجيب انه كان يعيل ، من هذا الدخل باستمرار ، خمسة وعشرين الفا من جيشه .

ادارة فخر الدين الحكيمة

كان لفخر الدين سجل خاص بجميع رجاله ، يسجل فيه اسماءهم واعمارهم ، وجداراتهم ومواهبهم البارزة ، وذلك كي يتسنى له ان يعطي كلا ما يستحق ، دون ان يكون نصيب الواحد اكثر من نصيب الآخر ، بالنسبة لمقدرته وكفايته .

وكان لديه سجل آخر احصيت فيه مختلف الاشجار المثمرة فى مملكته ، فكان يعرف عدد الدوالي ، واشجار التوت ، حيث كانت تقدر غلة كل منها بمد واحد .

وكان يعرف ايضا عدد الثيران ، والابقار ، والمعزى ، والغنم التي كانت تعطي نتاجا ضخما .

وقد وضع لنفسه قانونا يسير عليه وكان ينفذه بدقة ، فقد عين فى كل يوم ساعة خاصة يعمد فيها الى تدقيق الحسابات ومراجعة الاعمال المختلفة . وكانت هذه الاعمال تسجل خطيا وتحفظ للرجوع اليها عندما تدعو الحاجة .

كان فخر الدين نير الفكر ، مشغوفا بالعلوم . فقد عكف على دراسة اللاهوت . وشغلته الكيمياء ، كما اهتم بمعرفة العقاقير . ولم ينس ايضا الفن فقد دعا اليه رساما فرنسيا ، وضع له ما يزيد على ١٥٠٠ صورة مختلفة للطبيعة .

وهذه الرغبات المختلفة التي شغف بها ، لم تصرفه عن المهام الاساسية للحكم ، فقد كان يطلع على كل الامور التي تحدث فى أرضه . وتنتهي اليه احكام الجيش ، والشرطة وصيانة القانون ،

لكنه لم يكن يتدخل فى القضايا التي تتعلق بالديانة المسيحيــة ، احتراما للكنيسة الرومانية مفوضا امر تلك القضايا باكملها الــى البطريرك الماروني •

كانت لوحة قلبه صافية ، باهرة الوصف ، اذا نظرنا الـــى امانته لاصدقائه، ومعاملته الحسنة لهم لكنه، كذلك ، كان من السهل عليه جدا ، ان يلجأ الى مختلف الاساليب ساعة ينبغي التخــلص من اعدائه •

ونحن لا ندعي أن هذه الصفة ، أي صفة الانتقام السريع ، هي التي ثبتت لقب « الكبير » لفخر الدين ، ولكن هناك امورا سياسية استطاع ان يتحكم بها ، ويسيرها حسب مشيئته ، اكسبته فى الحقيقة هذا اللقب •

وكان الامير الكبير ، لا يتورع عن التظاهر علنا بالصداقة لاعدائه الذين يكتمون فى نفوسهم عداوتهم له، ويستدرجهم بحجة الصداقة ، ليغمد فى صدورهم الخنجر اذا رأى انهم يستحقون ذلــك •

لقد كان يلجأ الي هذه الطريقة للانتقام من خصومه ، الكاتمين عداءهم ، الذين يخاف ان ينقلبوا عليه ويعملوا للاطاحة به •

ومقتل امير بعلبك على يده يكفي للدلالة على وصف انتقامه، اذا دخل قلبه الحقد على احــد •

كان امير بعلبك تركيا ، عزيزا على شعبه ، محبوبا من الامراء والباشوات المجاورين ، جديرا بمودتهم لما يتمتع به من نفس كبيرة ، ولكنه كان العدو السري لفخر الدين ، فكتم هذا حقده وعداءه ، واظهر له الصداقة ، معلنا له ذات مرة ، انه عزم على ان يطلب من السلطان قلعة الفرنجة ، وهي اكبر قلعة شيدها « كــودفروا دو

بويون » فى سورية • فراهن امير بعلبك فى حفل من الناس ، بقطع رأسه اذا استطاع الامير فخر الدين ان يحقق هذا الامل •

رسخ هذا الجواب فى مخيلة امير الدروز ، فرشا احد اعضاء مجلس السلطان بثمانين الف قرش وتمكن عن هـــذه الطريق ، بالاضافة الى دفع بعض الضرائب ،ان يحصل على القلعة المذكورة•

وجاء صوباشي (١) مسرعا من القسطنطينية ، يبلغ فخر الدين ملكيته للقلعة ، فحصلت له فرحة عظيمة ، وبهجة لا توصــف ودعا الامير فخر الدين على الاثر ، امير بعلبك، الى وليمة فخمة جمع فيها كثيرا من الامراء والاعيان ، وقبل ان ترفع المائــدة ، وبينما كان المدعوون ما يزالون جالسين على السجاد ، وجــه فخر الدين كلامه الى أمير بعلبك قائلا: «لقد اخبرتك،من قبل،انني سأملك قلعة الفرنجة » فكان جواب أمير بعلبك ، انه لم يكــن يتوقع هذا التوفيق العظيم ، فانقض عليه أمير الدروز ممسكــا بلحيته ، وقطع رأسه، قائلا له :

« تذكر قولك ! ••• ألم تعد بتسليمي رأسك اذا ملكت القلعة ؟ • ها انذا اليوم أملكها » •

واشباعا لانتقامه ، حاصر فى اليوم التالي قلعة بعلبك التي تعد احدى عجائب آسية ، واخضعها لحكمه ، كما أخضع جميع المناطق التي كانت تحت سيطرة الامير المقتول •

تلك حادثة مؤسفة بلا شك، وربما كان لها اثر ازرى بمزايا كثيرة، مما كان يتميز به فخر الدين ، غير انها حادثة تستحق التسجيل، اذا اراد المؤرخ ان يعطي القارىء لوحات صادقة ، ويكون امينا فى الســرد •

---

١ ـ اي احد رجال البلاط العثماني •

قوة فخر الدين تـزداد سياسيا وماديـا

واخذت قوة فخر الدين تزداد يوما بعد يوم ، وعم الرخاء بين الشعب تحت ظل الطمأنينة ، دون ان تخلق بطالة او كسلا ، لان الحكومة تفادت ذلك بعدلها وحسن تدبيرها . ولقد حدث العكس تماما فاثارت السعة الهمة ، ودعت الى العمل والاهتمام بالصناعة ، وزراعة الكرمة والاشجار المثمرة ، والقطن ، واعطت كلها نتائج باهرة حتى ان الجبال الجرداء والارض البور جهدت فى شقها السكة وعمل فيها المحراث .

كثر الزرع فى كل مكان ، واعطى من النتائج ما كان فوق المؤمل . مما اسعد السكان ودفعهم الى العمل المنتج بجهد ونشاط، وكانت المراعي الخصبة تزيد فى تكاثر المواشي ، فعم الرخاء ، وانتشرت النعمة وسعة اليد فى كل ميدان ، وانتعشت التجارة وراجت رواجا شديدا ، فأمنت للبلد كل ما كان ينقصه من حاجات.

وهذا الرخاء المنتشر بسرعة ، لم يثقل كاهل الشعب ، بل اصبح للناس اكبر عامل للتشجيع على الانتاج .

وفى ظل هذا الحكم السعيد ، تطور المجتمع ، وازداد عدد افراده بسرعة ، وتعددت بواعث النشاط واسبابه ، بعد ان زالت من نفوس السكان مخاوف الفاقة والحرمان .

لهذه الاسباب ، كثرت موجات الوافدين الى البلاد من الاجانب ، مما وفر مزيدا من النفع . وهرع عدد كبير جدا من الاسر المسيحية ، لاجئة الى « امبرطورية » امير الدروز ، هاربة

من اضطهاد الاتراك وتعسفهم .

وبعد سنوات قليلة ، بلغت « الدولة الدرزية » درجة من القوة رفيعة جدا .

هكذا كانت حال الشعب سنة ١٦١٣ . غير ان الاعراب اخذوا يفسدون فى تلك الايام الحلوة بسلمها وأمانها ، بعد ان اغرتهم ثروات الدروز ، وادخلت فى نفوسهم الحسد ، فلجأوا الى اللصوصية ، وقطع الطرق ، لكن هذه التعديات زادت فى تمجيد فخر الدين وتعظيمه ، بعد ان قضى على اولئك الاعراب فى قتال عنيف ، مزق صفوفهم وشتت شملهم ، فجاؤوه اخيرا يتوسلون اليه ، فى ذل وانكسار ، ان يعفو عنهم ويقبل صداقتهم ومحالفتهم .

بدت الفرصة لفخر الدين مؤاتية كي يحقق اماله وينجز مشروعاته بعد الانتصارات الجديدة التي جعلت اسمه يبعث الرعب كما يحمل على الاحترام . وكان الامير محبوبا من شعبه الذي اصبح فى مأمن من هجمات الاعراب بفضل تدابير فخر الدين .

وقد استولى على جميع القلاع التي رأى فى الاستيلاء عليها ضرورة ، فافتتح خمس عشرة قلعة ، منها قلعة عجلون ، وقلعة نيحا ، وقلعة الشقيف . وكانت هذه القلاع تعتبر من اقوى الاماكن المحصنة فى الشرق الاوسط ، وزاد هو فى تحصينها ، واختزن فيها المؤن كما عززها بالحرس ، لانه كان ينوي ان يؤلف من البلدان التي اخضعها جمهورية القصد منها فى الحقيقة تهديم الامبراطورية العثمانية .

ولكي يتم له كل ما يصبو اليه دون عرقلة ولا عقبات ، اوهم الباب العالي بلباقة الذكي ونباهة الحريص ، انه لا ينوي من

وراء توسعه وتقوية بلده الا المحافظة على الامبراطورية وحمايتها من هجمات العصابات المتكررة •

توسع فخر الدين يثير مخـاوف الباشاوات

وضج الباشوات والامراء المجاورون من توسع فخر الدين ، وسيطرته على مناطقهم ، وتوالت على الباب العالي شكاياتهم ، بعد ان ادركوا ان فخر الدين يرمي ، بفتوحاته ، الى الاستئثار باماراتهم والامعان في تمزيق قواهم •

ولكن امير الدروز استطاع ان يتلافى نتائج سعاياتهم عـن طريق اصدقائه المقربين الى السلطان العثماني الذين عرفوا كيف يقنعون السلطان بحجة فخر الدين ، ويؤمن بالاسباب التي يتذرع الامير اللبناني بها ، وهكذا اخفق اعداء امير لبنان في جلب الضرر له ، فنقموا عليه بسبب اتساع نفوذه وكثرة فتوحاته •

وبسبب ذلك قام الحلف المشهور بين الامراء التابعيـن للامبراطورية العثمانية ، الذين كان يؤيدهم ويساعدهم باشا دمشق وباشا طرابلس • وسرعان ما اجتمعت جيوش هؤلاء الامـراء جميعا للعمل ، بعزيمة ماضية ، على استعادة البلدان التي اغتصبها فخر الدين •

وادرك فخر الدين نياتهم ، وعلم باستعداداتهم وخططهم ، ولكنه لم يقلق بل بقي ثابت الاعصاب ، وفيما كان خصومـه يستعدون لمفاجأته في قلاعه ، اذا به يباغتهم بغزوات وهجمـات ليس القصد منها اثارة حرب منظمة معهم ، بل تمزيق صفوفهـم وهم كأنهم في حفلة عرض •

وكان القواد المتحالفون يبتلون بالهزيمة فى كل لقاء مع قوات الامير الدرزي الذي كان يطاردهم ويشتت جحافلهم وهم ممعنون فى الفرار .

والذي اسعفه على قهر خصومه الثروة التي ينعم بها والعبقرية الحربية المتجلية فيه .

وازداد اعداؤه المغلوبون على امرهم حقدا عليه وضغينة . على الرغم من انكسارهم ومن الاهانة اللاحقة بهم .

وقد جمعت المصيبة بين هؤلاء وألفت بين نفوسهم المبتلاة بالمهانة ، ولذلك ترى اصحابها يستسيغون جميع السبل ، على حقاراتها اذا كانت تحمل اليهم الامل فى ارواء الحقد .

حاول الامراء والباشوات الفوز عن طريق التخدير والارهاب، فلم يفلحوا ،فلجأوا الى النميمة التي خيل اليهم انها تساعدهم على هدم عدوهم المشترك .

وسرعان ما اثارت هذه الخطة فى البلاط موجة من الذعر ، هائلة ، لما لفقته عن سيرة فخر الدين الذي جعلته الدعوة الكاذبة بعين الاتراك مخزيا ، ممقوتا ، واشاع بعضهم فى كل مكان ان امير الدروز يدعو الى الثورة لحماية المسيحيين بشكل علني ، خارقا بجرأة ، معتقد النبي محمد .

ووصلت الاشاعة بسرعة الى السلطان احمد (١) ، الذي اشتدت ثورته ، وغلى الغضب فى نفسه ، فاعد العدة للانتقام . ولكن اصدقاء فخر الدين استطاعوا ان يهدئوا هذه العاصفة وان يصلحوا الامر ، مكذبين الاشاعات .

---

١ ــ هو السلطان احمد الاول ١٦٠٣ ــ ١٦١٧ فى عهده غيرت النمسا اسم الجزية باسم هدية . واستعاد الفرس تبريز وروان وشروان بتقدمة ٦٠٠ حمل حرير .

واقتنع السلطان ، بناء لاقوالهم ، بان هذه الدعوة كاذبة ، ولا ترتكز على اساس ، وان الحسد وحده هو الذي اثارها ، ونشرها ، وان قوة فخر الدين ما هي الا دعامة للامبراطورية العثمانية ، ما دام خاضعا لها ، ويدفع الجزية باكملها دون نقصان • واستيقن الباب العالي من ان فخر الدين ، انما هو صديق مخلص ، لا يخون ، وانه السند الوحيد للتاج •

وبهذه الصورة ، اخفقت مساعي الشاكين ، فناموا على جراحهم ، بعد ان ايقنوا انهم لا يتمتعون بحكمة فخر الدين ، ولا بالشجاعة الكافية للقيام بمثل مهامه •

وهدوء العاصفة التي اثارها الاعداء ضد فخر الدين ، كانت له نتائج طيبة ، لو اكتفى فخر الدين بملكية المقاطعات التي استولى عليها ، واهتم بها دون الطمع فى التوسع لاقامة دولة قوية •

لقد كان بامكانه ان يكون أسعد من ملكوا وحكموا ، وهو العزيز على شعبه ، القوي بثرواته ، البار برجاله المنيع بعدد جحافله المدربة ، المخيف لجيرانه ، الاثير لدى السلطان •• كان بامكانه ، بفضل كل ذلك وباحترام اعدائه له ، ان يجعل السعادة تغمر امارته ، وتغلف قلبه الى وقت طويل ، ولكن طموحه ابى عليه ان يقف عند حد وفتح امامه افاقا واسعة من الامال والاماني •

وكان للقدس بريق مغر جذبه اليه ، فلم يستطع صبرا عن الوصول اليها وافتتاحها ليكون سيدها الاوحد ، فحالف الفرس ، ممنيا النفس بان يصبح المسيطر على بلاد ما بين النهرين •

وبدت الفرصة حينئذ ، سانحة للاعداء وصمموا على ان لا يدعوها تفلت من ايديهم ، فاتفقوا جميعا ، يدفعهم الالم المقهور الموتور ، على ان يؤلفوا وفدا من الزعماء يحمل الشكوى الى

السلطان . وتولى باشا دمشق ايصال الوفد اليه .

وهناك ، فى البلاط العثماني ، ليس من شيء لايمكن بيعه ، فالمال هو الوسيلة الفضلى التي تجعل الانسان صديقا للسلطان ومتمتعا بحمايته .

ان الصدر الاعظم ، الذي كان فخر الدين يعده من اصدقائه، ويعتمد عليه فى اعماله وثروته ،لم يكن راضيا عن الهدايا والرشوات التي كان امير لبنان يزجيها اليه ، فقلب له ظهر المجن . وليس من الغرابة فى شيء ان يخون الصدر صديقا ليس راضيا عنه ، بعد ان نكث من قبل بعهد السلطان وخانه خيانة نكراء .

وترأس الصدر الاعظم المؤامرة التي كان هدفها امير الدروز، وعبثا حاول اصدقاء فخر الدين المخلصون ان يبرئوه لدى السلطان ، فمركز الصدر الاعظم ، ونفوذه فى البلاط جعلا الدفاع باطلا ، فكان النصر حليف الحزب المعادي .

السلطان التركي ينقم على فخر الدين

وثارت فى صدر السلطان غضبة لاتقل عن غضبة المتآمرين.. تلك الغضبة التي جمعت كلمتهم ، والفت منهم حلفا حقودا لمقاومة فخر الدين . فاضمر السلطان فى نفسه نية القضاء على امير الدروز الذي لفه الاعداء برداء الخيانة ، وجعلوا منه الخطر الجاثم على صدر الامبراطورية .

وجاءت الاحوال تساعد على ذلك ، بعد ان مزقت الحروب الامبراطورية ، فارتفعت اصوات التذمر من المقاطعات النائية ،

تشكو قسوة الحكومة ، مهددة بانفجار قريب •

وجد السلطان نفسه فى مشكلة تتطلب عونا وسندا ، فزاد فى تيقظه ونقمته وجهز ستين سفينة حربية ، وعددا مماثلا من البواخر لمهاجمة الامير فخر الدين من البحر ، بعد ان تولىٰ باشا دمشق قيادة ثلاثين الف مقاتل ليهاجم امير الدروز من البر •

وتناهت الى مسمع الامير اجراءات الامبراطورية العثمانية ، فعمل فى جد وروية لاختيار مسلك حكيم يسلكه ، ودرس قدرة قواته ومداها ، مقارنا بينها وبين قوات الاعداء المستميتين في الحرب ضده والذين يبغون شخصه اكثر مما يطمعون فى ممتلكاته •

كان يعلم ان خسرانه معركة واحدة ، بل حتى انتصاره فى معارك عدة ، امر يحطمه ويقف به عن اتمام مشاريعه •

وعالج الامر بحكمة ، فرأى ان ليس له حلفاء اشداء ، اقوياء ، محصنون ، يعتمد عليهم ، وانه من المجازفة ان يقدم على الحرب ، لان انهزامه يمكن ان يقوضه ويبيده ، اذا تصلب الاعداء فى القتال ، وركبهم العناد ، فى متابعة حرب طويلة الامد •

وبعد ان درس هذه الامور مليا ، رأى ان يقابل تلك الحال ، بالتغيب عن دولته بعد ان شعر بغضبة السلطان الثابتة التي لا تقهر ، فتنزل عن الحكم لابنه الاكبر ، ثم جهز ثلاث سفن ركب احداها مع اربع من نساء اسرته (١) ، وعشرة من اولاده ، وستين خادما من خدمه ، حاملا اربعة عشر الف ليرة من الذهب •

---

١ ـ لم تبحر مع الامير فخر الدين سوى امراته خاصكية الظافري . وهذا يثبت ان فخر الدين لم يجمع في زواج واحد اكثر من امراة . ولو عرف حينذاك تعدد الزوجات لكان اصطحب معه اكثر من زوج واحدة . وكان برفقته مستشاره الحاج كيوان ، والشيخ خاطر الخازن .

اما السفينتان الاخريان فكانتا للمرافقة .

وقد ارشد ابنه الى الطريقة التي يجب ان ينتهجها ، اذا اشتعلت الحرب ، ونصح له بان يظهر بطولة فائقة وبسالة نادرة في الدفاع ، فيثبت في وجه الاعداء ثبات الجبابرة ليتأكدوا ان القوة لا تنقصه ولا الحكمة ايضا في الدفاع عن ارضه ودولته وقد وجهه بقوله :

« ان هذا هو الحل الوحيد الذي يقود الى السلم على اساس شروط ممتازة ، لاتعطى لمن تلين قناتهم ساعة الخطر ، او يعتريهم الضعف لدى الهجوم الاول » .

المعني يترك لبنان ويولي ابنه عليا

واعطى الامير فخر الدين ابنه جميع الارشادات اللازمة لامير شاب سيتسلم قيادة الدروز وحلفائهم ضد حلف قوي من الاعداء المتألبين . ثم اقلع بعد ذلك الى « ليفورن » في امارة توسكانة ، ثم الى فلورنسا .

وسرعان ما انتشر جيش الباشوات في مزارع سورية واريافها ، وكان حصار صيداء اول خطوة في الحرب . وكان الامير علي في انتظارهم هناك ، فجمع جيشه وسار على رأسه ، فخورا بان يقوم مقام ابيه وهو في هذه السن المبكرة . وكان الموارنة يهرعون اليه ، فيضمهم الى جنوده لمواجهة العدو .

كانت المعركة على اشد ما يكون من العنف والضراوة ، ولكن الامير عليا انزل بالاتراك اعظم الخسائر ، مشتتا صفوفهم ،

مقاوما فى عناد وثبات ، حتى ارغـم جحافلهم اخيرا على الفرار مهزومة شر انهزام •

وهكذا فازت صيداء بهذا النصر الكبير ، ونجت من الحصار الذي كان يطوقها ، واحرز الامير الشاب الظفر التام •

وعلى الرغم من صغر سنه ، لم يغتر الامير علي بقدرة جيشه وقوته ، بل رأى من الحكمة ان يمتثل لنصائح ابيه التي زوده بها قبل رحيله •

وبناء على تعليمات فخر الدين طلب من قائد الجيش المعادي ان يقبل استعداده للخضوع لاوامر السلطان على شرط ان يترك له ملكية الارض التي حكمها اباؤه • فقبل الباشوات عرض الامير علي لان السبب الاساسي لحقدهم كان وجود الامير فخر الدين ، واقنعوا انفسهم بان رحيل الامير فخر الدين كاف لشفاء غليلهم ، فقبلوا برضى تام ، عرض المنتصر فى ارجـاع الاماكن المغتصبة الى اهلها •

ولم يجد الامير علي صعوبة فى ان يحمل السلطان على قبول شروطه ، ما دام فى امس الحاجة الى نقل جيوشه الى مكان اخر استعرت فيه الثورة •

وعدا ذلك ، فانه كان يضمر لفخر الدين احتراما فائقا ، وما كان يوما مقتنعا بان الاعمال التي نسبت اليه ، كلها صحيحة ، فقد كان يعتبره رجلا مشغوفا بالعظمة ، اكثـر مما هو انسان شغب وتدمير •

وبالاضافة الى ذلك ، كان السلطان يعتقد انه من الصدق وصفه بالتسامح مع مختلف الاديان المعروفة فى بلاده ، ولكـن ذلك التسامح لم يكن جريمة بالنسبة اليه هو ـ وهو المعتاد ان

يضحي بالامور الدينية المقدسة ، فى سبيل شهواته ـ كان الدين حسب عرفه فضيلة سياسية ، لذلك لم يمانع فى قبول السلم من الامير علي ، متقبلا عرض الطاعة برضى وارتياح •

واحرز الامير علي بذلـك ، انتصارا مزدوجا ، فى احلال السلم فى ارضه ، وتثبيت الامن والراحة فى نفوس ابناء شعبه •

واستطاع ايضا ، جريا على سياسة ابيه الحكيمة فى ادارة شؤون الحكم ، ان يثبت القوانـين الاساسية للبلاد ، والحقوق التامة ، والعدالة للشعب ، مشجعا التطور التجاري، مانحا الاجانب امتيازات توفر لهم العمل المنتج ، مظهـرا فى كل الميادين حكمة ومهارة لا يقوى عليهما الا من مارس الحكم مدة طويلة ، وشعاره اتباع ارفع المبادىء الشريفة •

هذه السيرة لامير شاب ، لا تبدو غريبة ، او مبالغا فيها لدى من يعرف المبادىء التي نشأ عليها الدروز الذين يعتقدون ان السلطة ليست الا لسعادة الشعوب •

ما هي السعادة التي يجنيها العالم ، اذا لم تستأصل من نفوس الامراء الغرائز المقوتة الدنيئة ؟

اذا لم يكن الـدروز ، قد استوحوا مبادئهم من الضمير الانساني ، فعلى الاقل ، لا يمكننا الجـدال ، فى ان رؤساءهم ساروا بوحيه ، مدركين انه محرم عليهم السير فى طريق غيـر انسانية •

فـي عهـد السلطـان مـراد

عكف الامير علي على العاش مقاطعاته متخذا الحياد فى خلافه

الامبراطورية بين عثمان ومصطفى وكان ان خلع الاتراك مصطفى ، ووضعوا على العرش مرادا الرابع .

كان تسلم هذا الاخير الحكم ، موافقا تقريبا ، لعود الامير فخر الدين الى وطنه .

وبالرغم من غياب الامير فخر الدين تسعة اعوام عن وطنه (١) فان مشاريعه التي كان ينوي اكمالها ، لم تبرح لحظة من مخيلته ، بل على العكس ، فانه استفاد من اقامته في اوروبة ، ليتم كل تلك المشاريع .

اننا لا نشك ابدا ، في انه حمل دوق توسكانه ، على ان يرسل اليه الجيوش عند الحاجة لمناصرته ، وانه كان بين الاميرين معاهدة صداقة ومحالفة .

وهكذا برز فخر الدين (٢) في دولته وبرفقته عدد كبير من الفنانين الفرنسيين والايطاليين المهرة الذين الحقهم بخدمته .

كان الجميع ينتظرون أن يتسلم الامير فخر الدين في الدولة المرتبة الاولى التي كان قد عهد بها لابنه علي ، ولكن امورا سياسية صرفته عن ذلك ، فاكتفى برتبة قائد للجيوش .

ولكنه بالرغم من هذا اللقب المتواضع ، وهذه الوظيفة البسيطة بقي يقود سرا زمام الحكومة ، مصرفا الامور حسب مشيئته ، متابعا المشاريع التي لا يمكنه الانصراف عنها مسوقا بطموحه ورغبته في التقدم .

---

١ ــ يقال ان غيبة الامير من لبنان كانت خمسة اعوام وبضعة اشهر .

٢ ــ كانت عودة فخر الدين الى لبنان سنة ١٦١٨ نازلا في ميناء صيداء . وقد هاجه الحنين في غيابه فجاء مرة في مركب الى الشواطىء اللبنانية ، وقابل اخاه بعد ان نزل الشيخ خاطر الخازن ليلا الى دير القمر لاعلام الامير يونس بمجيء اخيه .

وكان هذا الطموح الذي فطرت عليــه نفسه ، يدفعه الى ملاحقة مواطن الباشوات فينتصر عليهم ، ويغتصب منهم فى كل مرة اماكن جديدة •

وتوصل الامير فخر الدين ، عن طريق اصدقائه الذين يعتمد عليهم فى البلاط العثماني ، ان يجعــل اشراف دمشق يوالونه ، ويشعلون نار الثورة فى المدينة ضد الباشا •

وكانت هذه الضربة الجريئــة ، حاسمة ، فى اتمام مشاريع فخر الدين ، لو لم تخنق هذه الاضطرابات فى مهدها • ولكن مع الاسف ظهرت مساعيه ونياته ، فثار الباشوات مجتمعين ، وراحوا يشكونه الى البلاط ، ليفسدوا خططه ، ويحطموا اماله •

كان مراد الرابع يحكم فى ذلك الوقــت كما نوهنا سابقا ، وكان سلطانا مستبدا مجرما ، حذرا ، متيقظا ككل ملك ظالم ، سيء السريرة ، يتأكله الجشع والرغبــة فى ابتزاز المال • وسلطان تلك صفاته ، لا يمكن الا ان يحقد ويغضب من مساعي فخر الدين •

وكان مراد لا يكتفي باخضاع هذا المتمرد ، والسيطرة عليه • بل كان يبغي القضاء الكلي على الدروز غسلا للاهانة • وهذا لا يستغرب من سلطان يعشش فى نفسه حب الاجرام •

تقدم الاتراك من كل جهــــة ، بجيوش كثيرة ، ليحاصروا فخر الدين • واصدر السلطان الاوامر المشددة ، للضرب دون هوادة ، فتوقع الدروز ان تهب عليهم أرهب عاصفة ، يمكن ان تهددهم •

ولكن بالرغم من غضبة السلطــان الرهيبة التي تفجرت ، وبالرغم من العزم الثابت الذي ازمــع عليه لسحق الامير وابادة الدروز ، وجد المعني فى البلاط العثماني افرادا تجرأوا على ان

يهدئوا ثورة مراد وتعديل خطته ، فراح بعضهم يعدد الخدمات التي قام بها فخر الدين فى سبيل الامبراطورية ، كابعاد عصابات الاعراب ، واخضاعها ، فى حين اخذ بعضهم الاخر يمتدح خصاله واخلاقه . اما اصدقاؤه المتحمسون له ، فقد برروا فتوحاته ببعض الحجج الموهومة .

ولكن مرادا لم يضعف تحت تأثير هذه الحجج ، فبقيت الجيوش تسير لتنفيذ الخطط حسب الاوامر السابقة ذاتها .

وعندما علم فخر الدين حقيقة ما جرى ، فكر فى طريقة تخرجه من هذا المأزق دون اراقة دماء . وقـد تحقق ما رغب فيه ، وما توقعه بلجوئه الى الصدر الاعظم معلنا له الصداقة والطاعة ، واعدا اياه بالتنزل له عن قلعة الفرنجة ، وقلعة بعلبك اللتين لـم يمض على الاستيلاء عليهما وقت طويل .

وكان هذا الوعد مغريا ، فقبله الصدر الاعظم ، وتولى تبرئة فخر الدين لدى السلطان حتى استطاع الغاء جميع الاوامر المتخذة بحقـه .

وهكذا مرت العاصفة الجديدة بسلام ، غير ان الصعوبات والعوائق التي لاقاها الامير الدرزي ، كانت سببا كافيا للتخفيف من حدته وتلطيف اساليبه .

ولكن نفس فخر الدين ، كانت أرفع من ان تتقبل الظهـور بمظهر الرعب امام الاخطار ، بانكسار وهزيمة .

الرجولية الحـق

هنالك رجال ولدتهم الطبيعة وفى اعماقهم ارادات لا تقهر ،

هؤلاء لا يرون فى الامور عظمة الا بقدر ما تحقق لهم من فوز ، ومهما كانت الطريق المؤدية الى النصر محفوفة بالاخطار ، فانها تثير فيهم القوة والعنـــاد دون ان تعرف قلوبهم اليأس او تخاف الهزيمة •

واذا اصاب هذا النوع مـــن الناس الهوان يوما فانهم لا يفقدون الامل فى النجاة وانما يستمرون فى العمل ولا ييأسون • وان تظاهروا حينا بالخضوع والطاعة ، فما ذلك الا ليتخذوا من وضعهم سبيلا الى خطوة اشد جسارة •

اننا نشبه هؤلاء الرجال بتلك السيول التي تشاد فى وجهها الحواجز المتينة العالية لوقف طغيانها وحجزها ، ولكنها ، وقد أبت التوقف بسبب السدود، تظل تحاول بقوة اختراق السداو نسفهمن اساسه ، لتتمكن من متابعة الاندفاع •

على هذا النحو كانت شيم فخر الدين • لقد جمد السلطان مراد مساعيه ، فرأى انه لا يستطيع المقاومة علنا ، ما دامت تدبر له مؤامرات ودسائس هائلة قد تحطمه اذا لم يتداركها •

عندئذ عزم على ان يتابع اعماله دون ضجة ، فعمد الى تعزيز ثروة بلده ، وتقوية نواحي نشاطاتـــه ، وزيادة تدريب جيشه ، وانعاش تجارته ، دون ان يتوانى عن احتلال بعض المواقع من وقت لاخر ، وتحصين اماكن جديدة ، معـــززا كل ذلك بحجج دامغة تجعل من مشاريعه امرا مستحبا لدى البلاط العثماني •

وبهذا المجهـــود المختلف الاساليب ، ادرك فخر الدين سنة ١٦٣١ سعادة عظيمة ، لرؤية ارضه تأهل بالسكان ، اكثر من اي بلد فى الشرق ، وكان شعبه ثريـــا محظوظا ، كما كان هو نفسه اقوى امير فى آسية •

ليس اجمل من ان يـرى المرء السلام يغمر تلك الربوع الجميلة •

ان وحدة الدروز الكاملة ، والذوق واللطف اللذين تميزوا بها لاحتكاكهم بالاجانب الذيـن انعشوا تجارتهم • ولخصب ارضهم ، والسعة الغامرة كل شيء ، والاسر المتعددة الغنيـة ، والحاكم الذي تعشقه القلوب ، ويتسابق الناس الى ارضائه فى شتى المواضيع ، كل هذه الامور الرائعة ، سنراها ، مع الاسف ، تزول •

ان الامن الذي نعم به الدروز ، كان له اجل محتوم ، وهذا الاجل كاد يكون هذه المرة الضربة القاضية ، على الدولة الدرزية•

كان فخر الدين قد درس امكانية قواته ومدى ثرواتـه ، دراسة دقيقة فكان يعرف قدرة جيشه ، وقوة فكره الذي ينجيه ساعة الخطر ، بالاضافة الى الرعب الذي يتركه اسمه فى قلـوب شعوب آسية وامرائها • وقد اغتر بالدرجة التي وصلت اليها قوته، فظن ان باستطاعته ان يحقق جميع الاعمال •

ان من البلية ان يخطىء الانسان فى تقدير قوته ، فالنظرة المتعجرفة الى خصاله الخاصة ، تقوده الى الضياع ، اذا كان هناك من يفوقه قوة •

اذا كان من الجهالة ان يتنكر الانسان لتلك الصفات ، او ان يهملها ، فمن الجنون كذلك ان يعتمد عليها بشكل يجعله يعتقد انه ليس ثمت من يساويه او يفوقه ، وان المال يخلد اعماله وقدرته ساعة يشاء ، متغلبا على الحكمة البشرية •

وكان فخر الدين يتابع دوما امتلاك اراضي الباشـوات جيرانه ، وكان يحصن مواقعه تحصين سيد يستعد للحرب • وكان

امير توسكانه ــ ليحقق جزءا من المعاهدة المعقودة بينهما ــ قد بعث اليه بعدد كبير من القذائف والمحاربين والمهندسين والخبازين، وكان جميع هؤلاء الرجال يعملون بمثابرة وجهد ، منهمكين في تجهيز القلاع تجهيزا يمكنها من القيام بمقاومة عنيفة طويلة الامد .

وكان أمير توسكانة قد أعد عشرة آلاف مقاتل ، لارسالهم الى فخر الدين حالما تنتهي الحرب بين فرنسه واسبانية ، ولكن هذه الحرب طالت وامتدت ، فرأى امير الدروز ان يستعيض عن معونة توسكانة بمعاهدة يرتبط بها مع الامير رباح ، وهو احد امراء الاعراب ، وجرب ان يرشو أيضا محمد باشا ، سيد القدس ، وابنه مصطفى بك فنجح فى اغراء الفريقين .

الامير الدرزي يعود الى خطة الفتح

وبعد ان تم له ذلك ، رفع فخر الدين سيف الثورة عاليا ، وباشر فتوحاته فى سورية .

كان ذلك كافيا لاثارة نقمة السلطان مراد ، خصوصا بعد ان بدأ الامير فخر الدين يعمل لاخضاع المزيد من البلدان ، ومن جهة ثانية ، اتفق باشوات دمشق وطرابلس وغزه ، مع امراء فريخ وسيفا وطربيه (١) لانهم خافوا من سطوة امير الدروز وخشوا ان يصبحوا هم انفسهم ، بعد ذلك هدفا لانتقامه ، ورأوا ان يستفيدوا من

---

١ ـ الامير طربيه ، هو ابن الحارثي حاكم اللجون . سنة ١٦٣١ ارسل الامير فخر الدين ، جنبلاط القادم من حلب ، الى شقيف أرنون للمحافظة عليها من اعتداءات الامير طربيه المذكور .

الاحوال الحاضرة ليقضوا على امل فخر الدين بعطف السلطان ، فجددوا شكاويهم ضده ، تلك الشكايات التي رددوها غير مرة ، وهي ان فخر الدين يحتقر الاسلام ، ويهدم المساجد ، ولا يؤمها الا مرة فى السنة ، ولا يصوم رمضان •

وقالوا علاوة على ذلك انه عقد معاهدة مع دوق توسكانه الذي تحمي مصالحه قنصليته فى صيدا ، وان الامير يسمح لبعض المالطيين بان يرسوا سفنهم فى موانىء لبنان مهربين فيها العبيد ، وانه يساعد المسيحيين على اذى المسلمين تاركا الحرية لاولئك بان يبنوا الكنائس ويشيدوا الاديار فى الارض التي لا ينفك يغتصبها من جيرانه الذين ينهب ممتلكاتهم ويثقلهم بالضرائب ، ويتآمر ضدهم بالاتفاقيات التي يعقدها مع الاعراب والمسيحيين •

واتهموه ايضا بانه يبغي من ثورته واعتداءاته ، ان يصبح سيد القدس ، فيتوج ملكا عليها ويثبت فيها الدين المسيحي •

وهذه الاقوال ، كلها بدت كأنها حقيقة ، لان مخططات الامير فخر الدين غلفتها الاسرار ، حتى بدت غامضة • وهذا ما جعل العثمانيين يصدقون المقالات الكثيرة التي تناولت فخر الدين ، فسيف هذا الامير يثير الرعب المميت فى كل مكان وآماله لا تعرف الحدود ولا تتهيب اي امر •

وقد عرف اعداء امير الدروز كيف يثيرون نقمة مراد عليه ، فزعمت شكاياتهم ان مملكة الدروز خطر على الدولة الاسلامية ، وان اميرهم مجرم فى ما يبديه من بأس وجرأة •

ولا تخفى ردة الفعل التي تحدثها هذه الشكاوى فى مملكة اسلامية ، ولا سيما ضد انسان جسور مثل الامير فخر الدين •

والحقيقة ان الرغبة فى السيطرة على بلاد الدروز الفتية اثرت

فى السلطان مراد اكثر من الشكاوى المبالغ فيها كثيرا ، فقد اسرع الى جمع اكبر عدد من قواته عازما على ابـادة الامير فخر الدين وقواته . وعين احمد كجك ، باشا دمشق قائدا لجيش مؤلف من ستين الف مقاتل . وصدرت الاوامر كذلك فى الوقت ذاته الى باشوات حلب ، والقاهرة ، بان يؤلفوا النواة الاولى لجيش الغزو من ١٦،٠٠٠ مقاتل . وطلب من امراء فريخ ان يضموا رجالهم الى هذا الجيش ، كما ترأس قبطـان باشا اسطولا مؤلفا من اربعين سفينة لمهاجمة السواحل فى وطن الدروز .

الاتراك يحـاولون اغتصاب وطن الدروز

تلقى الاعداء هذه الاوامر بفرحة عارمة ، وكان جشع الاتراك وحبهم للمال ، يدفعانهم دفعا الى محاولـة الاستيلاء على وطن الدروز المشهور بثرواته المتعددة .

اما فخر الدين فلم يتأثـر بغضب العثمانيين ، ولا عرف الاضطراب بل بدا واثقا من نفسه ، وقادرا على الحرب والدفاع .

واعد الامور على مايـرام ، فجهز جيشا مؤلفا مـن خمسة وعشرين الف مقاتل ، قسمه فرقتين الاولى كانت تحت امرة الامير علي وكانت مهمتها مهاجمة باشا دمشق الذي لم يكن حينئذ قد جمع الا اثني عشر الفا فى جيش منظم ، والثانيـة يرئسها الامير حسن والامير يونس ، الاول ابن فخر الديـن والثاني اخوه . وكانت مهمة هذه الفرقة ان تتقدم نحو باشا القاهرة الذي جمع اليه الامراء . اما فخر الدين فقد اخذ على عاتقه حماية الشاطىء .

وهكذا كان ، واخذ الدروز ينتظرون العدو بقدم ثابتة ، وقلب

جسور ، وعزيمة لا تقهر •

كان الباشوات يتقدمون فى حذر ، اما قبطان باشا فكان قد اقلع بسفنه ، ولكنه لم يكن من المنتظر ، بل لم يمر فى فكر احد ان اسطولا جاء لاخضاع عدو مثل فخر الدين ترغمه سفينتان لا غير على تغيير وجهة سيره ، والبقاء بعيدا عن هدفه •

كانت السفينتان انكليزيتين ، فى خليج « سيو » وكانتا على اهبة العودة الى انكلترة ، بعد ان عبأتا حمولتهما قمحا •

رآهما قبطان باشا ، فبـــدت له الفرصة سانحة للنهب ، واللصوصية ، فتقدم نحوهما ليأسر الملاحـــين ، ويستولي على الحمولة ، ولكن ما كاد الاسطول التركي يصل الى السفينتين حتى قطع الانكليز الحبال مستعدين للمعركة بكل شجاعة •

وبالرغم من التفاوت فى العدد والقوة ، فقد ابدى الانكليز بسالة فائقة ، بعد عراك دام ثلاث ساعات ، اغرقوا خلالها ، الى القاع ، ثلاث سفن تركية • غير ان كثرة عدد الاتراك تغلبت اخيرا •

وصعد الاتراك الى السفينتـــين الانكليزيتين متدافعين ، متسابقين ليشبعوا حقدهم وجشعهم ، ولكنهم فى الحقيقة كانوا يتسابقون الى الموت •

اذ ما كاد الانكليز يتأكـــدون من خسران المعركة ، حتى اشعلوا النار فى مستودعات البارود ، فبادوا والاتراك المعتدين معا ، بعد ان اخذت النار تلتهم السفن •

وهكذا اصاب التخريب السفن باجمعها ، وعمت الاضرار ، وقد بلغ عدد القتلى والمشوهين الف ومئتي رجل • وعندئذ اضطر قبطان باشا الى العود الـــى استانــة لترميم السفن الباقيـــة ، والاستعاضة عن القتلى برجال جدد •

عيل صبر الباشوات ، وضاقوا ذرعا بالانتظار ، اما قائدهم الطماع المترقب الفرص للنهب ، الذي انتظر عبثا قدوم الاسطول ، فقد ارسل رسولاً الى الامير فخر الدين ينذره بوجوب سحب قواته من الاماكن التي كان قد احتلها من قبل وبالخضوع للسلطان مباشرة .

لكن الامير فخر الدين اجاب الرسول بان الانذار يجب ان يوجه الى ابنه علي الحاكم الفعلي للبلاد في تلك الفترة ، اما هو ، أي الامير فخر الدين،فليس سوى موظف او جندي لدى ابنه علي.

وصرف الرسول بعد هذا الجواب من بيروت ، حيث كان يقيم فخر الدين الذي وجه ، من ساعته ، الى الامير علي امرا بوجوب الانتقال الى صفد ، لمواجهة جيوش الامراء المتحدة المقبلة لنجدة باشا دمشق (١) ونصحه بالا يدخل مع العدو في معركة منظمة ، بل عليه ان يتبع معه طريقة المناوشات ليضعفه ويمزق صفوفه ، باعتماد ابرع الحيل الحربية لارغام جنود الاعداء على التفرق والتشتت .

وما كادت هذه الاوامر تصل الى الامير علي ، لاتباع الطريقة الواجب انتهاجها ، حتى كان الرسول قد وصل الى القائد العام وبلغه جواب امير الدروز .

وقد بغت القائد من هذا الجواب الذي لم يكن ينتظره ، بل كان يمني نفسه بالهدايا الثمينة بعد ان ابلغ الامير فخر الدين الانذارات السلطانية .

وبعد ان خابت امال الباشا ، ومنيت اعماله بالاخفاق ارسل

١ ـ هو احمد حافظ باشا الذي قاد جيوش الانكشارية لمقاومة فخر الدين برا بعد ان هاجمه قبطان باشا بحرا سنة ١٦٠٩ . وقبطان باشا هذا كان وزيرا للحربية.

الى امراء فريخ (١) وسيفا (٢) يطلب منهم الاسراع بجيوشهم الى صفد ، وهو المكان الذي اختير للقاء العام •

معـــارك رهيبـــة

اما الامير علي فكان يقود جيشه بنفسه ، وكان عليه ان يستغل مركزه واوامر ابيه كي يستطيع القضاء على مطامع القائد العدو ، ولكنه عمل بوحي غروره واعتداده بجسارته ، وسار على رأس جيشه وفي نفسه ثورة من الحمية تغلي كالبركان • والتقى جيشه جيش باشا دمشق والتحم الجيشان في معركة حامية • من الواجب ان نقدر جسارة الامير علي ونمتدحها ، وان تكن تنافي الحكمة والقدرة ، والجسارة غير المتهورة ، ولكنها على كل حال ، ليست بالامر المكروه •

وسرعة الامير علي في اصدار الاوامر ، وشجاعته وخبرته في ادارة المعارك ، وحرصه على ان يكون مثلا لرجاله في الشجاعة والاقدام ، تجمعت كلها لتجعل منه قائدا عظيما •

وقد قاوم ببطولة نادرة وخطط بارعة ، اولئك الاتراك

---

١ ـ استولى بنو فريخ ، في زمن فخر الدين الاول على مقاطعة بعلبك التي كان يحكمها امراء بني حرفوش الشيعيون ، وقد قويت شوكتهم ، وامتد سلطانهم الى نابلس •

٢ ـ كان امراء بني سيفا يحكمون بلاد عكار ، وقد اخلصوا للدولة العثمانية اخلاصا دفع العثمانيين الى تعيينهم باشاوات لولاية طرابلس . وقد اشتهروا بالجود والانعام على الشعراء ، ولكنهم ضايقوا الناس بالضرائب الكثيرة . وكان سوء المعاملة الذي لقيه التجار الاجانب من هؤلاء الامراء فرصة للامير فخر الدين الاول ، فانتهزها ليشجع التجارة في مرفا صيداء ، وتمكن من ان يجلب اليه اكبر عدد ممكن من التجار الاجانب •

الذين جعلهم طمعهم فى النهب قوة لا تغلب ، ولذلك ما كـادوا يتراجعون ، وقد تبعثرت صفوفهم ، حتى عادوا يدافعون عـن مواقعهم محاولين استعادة ما فقدوه منها .

وكانت خسارة الفريقين فى هذه المجزرة متساوية تقريبا ، ولكن بأس الامير علي زرع الذعر فى قلوب الاتراك ، فمـزق فرقهم وشتتها ، واغرقهم فى بحر من الفوضى يكاد يتعذر عليهم النجاة منه ، بعد ان قتل منهم فى ساحة المعركة ثمانية الاف رجل .

وهكذا خرج الامير علي من تلك المعركة رافعا اعلام النصر ، وان يكن قد فقد فيها سبعة الاف من رجاله ، ولم يبق لديـه سوى خمسة الاف كان عليهم ان يقابلوا الجيوش المتحدة مع جيش باشا دمشق المدحور .

وباشر الامير علي معركته مع هذه الجيوش بعد يومين .

والغريب فى الامر ان الامير عليا ، وقد نسي انه لم يبق له من الرجال سوى خمسة الاف نهكتهم معركة الامس ، انقض ببسالة تفوق حد الوصف ، على القوات المتحالفة ، وراح يحاربها بشراسة لا تعرف اللين ، فقتل من الاتراك نحو تسعة آلاف ولكن الذين سلموا من جنوده كانوا لا يزيدون على خمسين مقاتلا .

وبالرغم من كل ذلك لم يكف عن القتال بهذه الشرذمـة الصغيرة الباقية لديه ، ولكن الحظ خانه ، ويااللاسف ، فى تلـك الساعة اذ سقط فرسه تحته ميتا لشدة الكلال ، واغتنم احـد الجنود الاتراك عندئذ تلك الفرصة السانحة واسرع كي يقبـض على الامير البطل الذي لم يلق السلاح من يده .

ورفض القائد الدرزي المغوار الاستسلام بكل اباء ، وصمم على الاستمرار فى المقاومة حتى الرمق الاخير ، غير ان الاتـراك

قطعوا له العهد بالابقاء على حياته فألقى سلاحه ، وعندئذ فتك به الجندي التركي غدرا غير حافل بالعهد المقطوع •

وقطع الجندي اللئيم اصبع الامير علي غنيمة ثمينة وحملها الى القائد العام الذي بعث بها الى السلطان اشعارا بالنصر الذي احرزه ، وبعدئذ تقدم بجيوشه مسرعا لمحاربة الفرقة الثانية التي يقودها الاميران حسن ويونس •

لقد كان من الحكمة ان لا يجازف الاميران فى خوض معركة لاتتعادل فيها قوتهما مع قوة العدو ، ولا سيما ان النصر الذي احرزه فى معركته مع قوة الامير علي ، زاده حماسة وصلابة عزم • غير ان الدروز المشهورين بشدة البأس والشجاعة الطبيعية النادرة التي تجعلهم يستخفون بالموت ، لم يقيموا وزنا لما رأوه من استعداد العدو ، فانتظروه كي يقابلوه فى معركة حاسمة •

ودارت رحى هذه المعركة ، وكانت من العنف والشدة والاستماتة بحيث اتخذت طابع الشراسة ، وكانت مجزرة رهيبة ، لم يسلم بنتيجتها سوى الف وستمئة رجل من جيش العدو معظمهم مثخن جراحا •

اما الدروز الذين نجوا ، فقد نشبت فى صفوفهم الفوضى ، بعد ان سقط الامير يونس قتيلا ووقع الامير حسن اسيرا فى ايدي الاتراك ، وانسحبوا من المعركة ،وهكذا تم للعدو النصر • وكانت شجاعة الامير الفتى المتحمس ، سببا فى القضاء على قوات الدروز وتعريض بلادهم للتخريب والنهب • وكل ذلك مبعثه غرور الشباب الذي تخطى حدود الحكمة •

وكان فخر الدين ، عندما ظهر الاسطول العثماني فى مياه طرابلس ، يجهل مصير قواته وما قام من احداث ، وقلقه على ولديه

وجهله ما افضى اليه امرهما اغرقه فى بحر من الهموم واثار فى نفسه الشكوك مما جعله يتهم بعض رجاله بالخيانة •

وكان عليه فى مثل هذه الحال ان يقر ، دون ابطاء ، الخطة التي يجب ان يستقبل بها قبطان باشا •

فى مثل تلك المواقف ، كان فخر الدين يعرف ان التعقل وحسن التصرف يفرضان الاعتدال والتظاهر بالاخلاص للسلطان ، فاخذ فى ارسال فرقه العسكرية الى جبل لبنان •

اما عدد جنود تلك الفرق فلم يكن يتجاوز عشرة آلاف بما فيهم الحرس الذي يبلغ عدد افراده ثلاثة آلاف •

فخر الدين ينقل من بيروت الى صيداء

ترك فخر الدين بيروت ، مع جنوده وخدمه متجها نحو صيداء ، وما كاد يصلها حتى ارسل ابنه منصورا الى قبطان باشا(١) حاملا الهدايا الثمينة ، وصرة فيها عشرة الاف ليرة ذهبا •

وصل منصور الى القبطان ، فقدم اليه الهدايا ، مؤكدا له باسم والده الامير ، ان هذه الهدايا ما هي الا دليل الاخلاص للامبراطورية العثمانية وان اباه ما كاد يبلغه نبأ قدوم قائد الاسطول السلطاني ، حتى تراجع بجيشه بعيدا وهو على اتم الاستعداد لان يذهب بذلك الجيش الى اي مكان تقتضيه مصلحة السلطان •

وقال ايضا ، ان الامير فخر الدين مستعد لان يخضع للاوامر وان السبب الوحيد الذي حمله على التسلح هو محاربة العربان واعدائه المجاورين •

---

١ ــ قبطان باشا هو قائد الاسطول التركي

تلقى قبطان باشا هدايا فخر الدين ، دون ان يحقق رغباته ، بل فعل عكس ما يأمل امير لبنان ، اذ ابلغه انه سيحتفظ بالامير منصور اسيرا لديه ، وانه عازم على التقدم الى صيداء ، بامر من السلطان ، لاحتلالها والسيطرة على قلعتها .

كان الامير المعني ، ينتظر من قبطان باشا معاملة لائقة ، ولكنه صدم . وغدر الباشا كان يمكن ان يتحمله فخر الدين ، لولا اسر منصور وحسن ، وموت علي ويونس ، وخسارة معركتين، وابادة جيشين ابادة شبه تامة .

كل ذلك وقع على فخر الدين وقوع الصاعقة .

منذ تلك اللحظة ، امسى فخر الدين فريسة الالم الممض ، والذعر الشديد ، وتخلت عنه حكمته ، وغاب وعيه ، وثباته ، فسيطر عليه اليأس .

ولم يبق فخر الدين كالماضي ، ذاك البطل المخيف بمبتكرات عبقريته الواسعة النطاق ، وبفكره النفاذ الدقيق .. وبأس قلبه الشهم ، الشريف .

لقد حل الضعف فى نفسه ، محل أنبل الصفات واجملها ، حتى لم يبق من السهل تذكيره بها .

انه الان رجل مذعور ، ويتوقع السقوط فى الهوة فى كل آن .

ولم تستطع عروض المسيحيين المقيمين فى صيداء والجوار تقوية معنوياته ، حتى ولا الحاح حرس قصر المدينة ولا اخلاص الموارنة والاعراب ، ولا محبة الشعب المتحمس الذي كان مستعدا للقيام باية تضحية تغسل الاهانة وتساعد على الانتقام من العثمانيين .

اجل ، لم يستطع كل ذلك ان يعيد فخر الدين الى حالته السابقة ، اذ اعترى فكره الشرود لفرط القلق والاضطراب .

وعاد سريعا من صيداء الى بيروت ، تاركا شعبه للاضطهاد وبلاده للنهب ، ومواقعه لتحكم منتصر ، متصلف ، تزيده حقارة نفسه ، حبا لتوجيه الاهانة وامعانا فى الاستبداد .

انها عبرة رهيبة لمآل الثروة ، وبرهان حتمي للقوة الموجهة التي يخضع لها الملك والراعي على السواء .

واي ملك يستحق لقب « الكبير » ، كفخر الدين ؟ اربعون سنة من الفتوحات .. والانتصارات .. والتقدم السريع الرائع ، فى ظل حكومة عاقلة ، حكيمة ..

انها مرحلة طويلة من السنين ، كللت رأسه بالغار ، ولكنها لم تستطع فى النهاية حماية ملكه من ذلك المآل المحزن .

والذي كان يحمل على الاستغراب ، هو ان الامير فخر الدين كان يسرع الخطو امام قدره القاسي ، كأنما كان يدعوه ليشبع فيه قسوته ، ويسابقه على حفر الهوة السحيقة .

ولم يكن فى الحقيقة ، صعبا على فخر الدين استعادة الثبات فى وجه عدوه . فقلعة صيدا وحدها كافية لمنع نزول قبطان باشا ، او بالاحرى لابعاده عن الشاطىء ، حتى ولو كانت حامية تلك القلعة متوسطة القوة .

والقلاع الاخرى التي كان المعني الكبير قد حصنها ، تستطيع كل منها على حدة ان تقوم بدفاع عنيف ، جاعلة ارض الدروز مقفلة امام غزو الاعداء .

وفرق الموارنة ، وجحافل الدروز كان بامكانها ، لو اجتمعت واتحدت ، ان تؤلف جيشا قويا قادرا . فضلاً عن ان النساء قد

جئن فخر الدين مع ابنائهن طالبات الانضمام الى الجيش للقتال •

وفخر الدين نفسه لم يكن يجهل ان الامير رباحا ، امير الاعراب ، كان مستعدا لنجدته ، وتمزيق صفوف الاعداء دون هوادة ، والامعان فى مقر الباشاوات نهبا واقلاقا •

فكيف لم تستطع كل هذه الاسباب ان تعيد فخر الدين الى رشده ، وهو الذي كان ما يزال كبيرا ، فضلا عن ان بوادر التشجيع تلك تستطيع ان تجعل من اجبن الجنود بطلا مغوارا ؟

ولكن الغرابة تزول حين ندرك ان هناك قوة عليا تلعب باقدار الدول ، لتنبه الشعوب الى ان فى العالم سيدا واحدا فقط لايغلب •

وقبطان باشا كان شديد البراعة فى الاستفادة من ضعضعة العدو ، واضطراب حاله •

وفى تلك المواقف ، تبرز الحنكة فى اغتنام الفرصة المؤاتية ، وهذه الحنكة ، أفى الاعمال الكبيرة كانت ، ام فى الاعمال العادية، هي التي تقود الى النصر •

لذلك اسرع قبطان باشا بالتقدم الى صيداء، مقيما نفسه سيدا عليها بعد ان اقام فيها مقر الحراسة والجيش • ثم تابع سيره فورا نحو بيروت •

حينئذ ، ترك فخر الدين بيروت ، منتقلا الى الجبال المجاورة مع رجاله وامتعته ، ووجد قبطان باشا نفسه حرا دون مقاومة ، ففتحت له بيروت ابوابها كما فعلت صيداء ، فعين عليها حاكما ، وضع تحت امرته جيشا كافيا ، لمقاومة الدروز واعوانهم المسيحيين والموارنة المنتشرين فى البلاد ، اذا هم حاولوا استعادة تلك المدينة•

بعدئذ عاد قبطان باشا الى اسطوله ، مبحرا الى القسطنطينية ليسلم الامير منصورا الى السلطات ،ويضع بين يديه مفاتيح قلعتين من اكبر القلاع فى فلسطين •

تلك كانت مهمة قبطان باشا • وما كان يريد ان يفعل اكثر من ذلك ، خوفا ان يقع فى كمين ، اذا حاول ملاحقة فخر الدين • فتركه آمنا فى جباله ، كيلا يخسر فى لحظة ثمرة فتوحاته التي لم تكن قد ثبتت بعد ويخشى عليها من التزعزع •

اما باشا دمشق ، الذي كان اشد حقدا وعنادا من القبطان، فقد تابع تقدمه فى ارض الدروز ، مقترفا ضروب العدوان فى كل مكان ،مرتكبا مع حلفائه جميع انواع العنف والتعديات والمظالم • ولكن فى الوقت عينه ، كانت ممتلكاته فريسة لتخريب رباح ، امير البدو ، الذي اخذ يغزو البلاد فى قسوة بالغة •

ووجد جيش العدو ان الحصارات المختلفة التي اقامها ، كانت فى الحقيقة لضعضعة قواته ، فقلعة نيحا وحدها قاومت مجهود المحاصرين اكثر من سنة ، وبالرغم من سقوط قلعة غزير ، وقلعة الملكة استر فى صفد ، وقلعة بعلبك ، وقلعة القديس جان فى عكاء ، فان اقل تحرك او هجوم ، كان يمكن ان يساعد على استرجاعها جميعا اذا تم تحت اشراف الامير الدرزي الكبير•

وحتى عزلة هذا الامير ، ولامبالاته ، كانتا سببا جديدا ، دفع الى اضطراب الاعداء ، فقد رأوا ان هذه البادرة ليست جبنا ولا خوفا ، وانما هي حيلة يقوم بها المعني الكبير للقضاء على جيش المتحالفين •

قلق باشا دمشق قلقا شديدا ، وانشغل باله ، فعزم على

ان يطلب من الباب العالي نجدة سريعة كافية . ويؤكد للسلطان في طلبه ان الامل بالنجاح ضعيف جدا . ارسل السلطان الى باشا دمشق النجدة ولم يكن احد يشك في ان في سلوك فخر الدين هذا المسلك خدعة متوقعة ، فموظفوه كانوا يتوقعون منه ضربة بارعة حازمة ، ينقض بها على الاعداء المتحالفين ، انتقاما لاهله ، وممتلكاته .

وما كادت الريح والجو يؤاتيان ، حتى ارسل السلطان الى باشا دمشق ، النجدة التي توسل اليه بارسالها ، فخرج جعفر من ميناء استانة ، بجيش مختار ، مؤلف من عشرة الاف مقاتل وزعوا على خمس واربعين قطعة حربية .

وكان جعفر يحمل امرا بان لا يعود الا بعد القبض على فخر الدين نفسه ، لان شعبا مقاتلا قويا ، كالدروز لا يمكن اخضاعه الا بهذه الطريقة .

وكان قواد الامير وحلفاؤه لم يفقدوا الامل بعد ، بأعجوبة تفجرها مواهبه ، حتى كان وصول الاسطول العثماني ، فما كاد جعفر ينزل الى البر ، حتى رأينا ان الامير ما يزال يقف الموقف عينه ويبقى مكتوف اليدين حيال هذه الاحداث ، فاسقط في يدالجميع .

وانه لامر غريب ، ان لا تستطيع جماعة من الشجعان ان توجه الرأي في وجهة صحيحة لتغيير سير الامور ، فيقعدها الخلاف وتمسي ضحية جمود رجل تضعضع رأسه وفقد شجاعته(١).

١ ـ يظهر ان ثورة الكاتب مردها الى كرهه للعثمانيين ، لانه لم يشأ ان يجد لفخر الدين عذرا في اتخاذ هذا الموقف ! ان تقاعس فخر الدين لم يكن ، كما اسلفنا، عن جبن ، وانما حنكة وخبرة ، لانه لم يكن واثقا في الحقيقة من ثبات حلفائه الذين كان قد شلهم انتصار الاعداء .

وهنا لا يمكننا ان نقف دون أن ندرك اهمية القائد في حياة الشعوب ، والدور الذي يمثله في شرف النصر وخزي الهزيمة على السواء .(١)

بعد هذه البادرة الاخيرة لليأس الذي غمر نفس فخر الدين ، فتح الجميع اعينهم ، وادركهم الاخفاق من كل ناحية ، فانصرفوا عن اميرهم الذي تخلى عنهم . وقد وجد ، كل بمفرده ، انعليهان يترك اميره لهول مصيره ،وهكذافالحب والاعجاب اللذان غلفا القلوب فيما مضى ، حل محلهما البغض والكراهية والمقت .

وازاء هذا المصير ، انصرف كل امرىء الى خدمة مصلحته الخاصة ، مهتما فقط بصيانة نفسه . وانسحب الاعراب بما غنموا ، وسكن الموارنة منصرفين الى اعمالهم وبقي الدروز المساكين وحدهم عرضة للنهب والسرقة والعنف .

اما الامير نفسه فقد كان يمني النفس بشروط شريفة ، تحفظ كرامته ، وتبقي على مركزه . ولم يكن فرار الشعب من حول فخر الدين عاما ، (٢) فقد بقي بجانبه خمسون رجلا ، آلوا

---

١ ـ نلاحظ ان الكاتب يكثر من الوعظ والارشاد ، وما كان ذلك الا بوادر الثورة الشعبية التي كانت تغلي في نفوس الفرنسيين . كان هم الكاتب ان يعظ الملك، متخذا شخصية فخر الدين موضوعا لتنفيذ غايته .

٢ ـ كثيرا ما يلحظ القارىء التناقض في الحديث ، وكثيرا ما يصادف تفككا في الكتابة ، وضعفا في الارتباط .ان مرد ذلك الى الكاتب نفسه ، واني لم اشا ـ امانة للترجمة ـ الا ان اورد النصوص كما جاءت .

وحاولت في الترجمة ان ابقي على اسلوب الكاتب دون ان اتصرف تصرفا خاصا في تكييف الجمل والتعابير ، او في تقديم بعضها وتاخير بعضها الاخر ، وما ذلك الا لاعطي الفكرة الصحيحة عن طريقة الكاتب فيما كتب ، وعن قدرته في الكتابة .

ان الكتاب ، كتاب تاريخ ، واسلوبه يتخذ طبعا طابع الاسلوب العلمي ، ولكن مؤلفه على ما يبدو لم يكن كاتبا مجيدا ، يلاحظ ذلك حتى من خلال الترجمة ، الاديب او الناقد ، او من اعطي نعمة التذوق الادبي .

على انفسهم ان يشاطروه مصيره وشقاءه ، فتأثر المعني لامانتهم اشد التأثر ، حافظا لهم محبة لا تفتر ، وقد برزت الشفقة التي حركت قلبه فى احاديث ضمنها حبه وامانته ، وعرفانه لجميلهم ــ تلك الاحاديث التي استدرت الدموع من عيون الابطال دون ان تندى لها جباههم ، ولكنه فى النهاية ، عندما اعلن عزمه على الخضوع ، ورغبته فى الاستسلام ، صرخ مرافقوه البواسل بصوت واحد ، مجتهدين فى ان يولدوا فى نفسه من جديد ، رأيا معاكسا .

ولكن الامير بقي ثابتا عند رأيه ، معلنا انه يعرف الوسيلة التي تحفظ السلم بينه وبين مراد ، ويدرك كيف يرضي بخله وشحه ، ولا مجال للوصول الى ذلك الا عن طريق الخضوع .

لم يقتنع رجاله بهذه العروض ، راجين منه ان يستعيد بأسه وثباته اللذين جعلاه دوما متفوقا على اعدائه فى اشد الحالات خطرا ، مقسمين انهم يفضلون الموت بنار العدو على ان يقبلوا بمثل هذا المشروع ، فقبل فخر الدين بعد الحاحهم ، وحزمهم ، وغيرتهم ، ان يلجأ الى خلوة آمنة يتعذر على العدو الوصول اليها ، حيث يمكنه الانعزال بعيدا عن ايدي العثمانيين ريثما يحين فصل الشتاء والامطار الذي لن يسمح لهم بغزو الجبال ويرغم اسطولهم بعد ذلك على التراجع والانسحاب .

كانت خلوته فى مغارة وعرة (١) يصعب الوصول اليها ، ضيقة المدخل ، يبلغ طولها مئة وخمسين قدما ، وعرضها ثمانية امتار .

---

١ ــ هي قلعة شقيف تيرون .

بدت هذه المغارة لفخر الدين افضل مكان يعتزل فيه ، فاختزن فيها مؤنا تكفي مدة ستة اشهر • واقام فيها مع رجاله البواسل الخمسين الذين اقسموا له الايمان المغلظة بان يستمروا فى ولائهم له ، ومحبتهم اياه التي لا تحول ولا يتطرق اليها ضعف •

اما الاميرال فلم تبارح مخيلته المهمة التي جاء من اجلها : فقد كانت اوامر السلطان صريحة ، وكان هو يدرك جيدا ان لا قيمة لانتصاره اذا افلت فخر الدين من قبضته •

واقلق هرب الامير المعني القواد المتحالفين جميعا وخصوصا جعفر الذي كان اشدهم ارتباكا وذعرا •

وبعد ان اخفقوا جميعا فى معرفة المكان الذي لجأ اليه فخر الدين ، اقروا محاصرة المغاور ، جازمين بانه لا يمكن الا ان يكون اتخذ من احداها حمى له • ظانين انهم ، بهذه الطريقة ، يرغمونه على الاستسلام ، خوفا ان يتعرض للموت جوعا •

وقد تعاونت جميع الجيوش المتحالفة على محاصرة المغاور ، فاستغل الاعراب هذه الفرصة كي يتابعوا قطع الطرق والاعمال اللصوصية ، ممعنين فى التعديات ونشر الذعر بين الاهلين ، وسرعان ما انتشروا فى مواطن الباشوات يعملون نهبا وتخريبا بصورة وحشية لا يرافقها شيء من اللين ولا الشفقة • فاحدثوا الدمار فى كل مكان ، وارغموا الاهالي على البقاء داخل اسوار المدن ، حيث لم يبق بينهم من يجرؤ على الخروج •

عمت الفوضى ، وثارت الفتنة فى اكثر المقاطعات ، ورأى الباشوات انفسهم فى اشد الحاجة الى تجنيد قواتهم لمقاومة الاعراب الممعنين فى التعدي والافتنان ، فعادوا الى مقاطعاتهم ؛

وبقي جعفر وحده مع جيشه الذي كان قد نزل الى البر •

لقد كانت تلك الفترة ، التي ارتبكت فيها احوال اعداء فخر الدين مدعاة فرح الامير المعني ومبعث امله ، فقد اوشك الفصل الذي يترقبه ان يحل •• وهـذا الفصل هـو ان يؤمر الجيش البحري العثماني المحاصر بان يعود الى السفن •

فقد ضايق هذا الجيش ان يضطر الى متابعة الحصار ؛ وخصوصا ان الشتاء قد اخذ يقلقه ، وارتفع صوت تذمره عاليا ، واخذ الجنود يهددون بمغادرة المعسكر •

ولكن الاميرال القائد عرف الوسائل التي تمكنه من الثبات وتضمن له احترام الجيش ، وقد وفق الى تهدئة الاضطـراب فى نفوس الجنود ، بما بذله من اللطف ، والترغيب فى العـزة ، وبجعله نفسه المثل الصالح الذي يحتذى •

وتساقطت الثلوج وتراكمت حتى لم يبق من سبيل لابقاء الجيش فى البراري يعاني من الزمهرير والقلق ما جعـل اليأس يغلب على مجهود الاميرال فأعد العدة لترك المخيم والعـود الى البواخر ، يغمره القلق والخوف من المثول امام السلطان دون ان يقطف ثمرة صبره وثباته •

وكاد القدر القاسي يلامس باصابعه سلامة فخر الدين ، الذي استعاد الامل فى الحرية التي يثور حبها فى نفسه القويـة المتيقظة ، فاستيقظت فى اعماقه الشجاعة من جديد ، معيدة اليه صفاء فكره ، ونباهة عقله •

لقد كان ، فى الحقيقة ، مغتم الفؤاد لفقده اعز رفـاق جهاده ، اكثر من اضطرابه للموت الوحشي الذي كان يتهدده •

وحينئذ ، خالجه شعور جديد ارقه ، فقد خاف ان يـؤدي اليأس ببعض جنوده الى الغدر به وخيانته ، وبات شديد الحـذر على نفسه واخذ يغذي في نفوس مرافقيه دوما روح الثقة به ، ويمنيهم بحلاوة العيش بعد تحقيق المشروع الذي يضمن سلامته، مظهرا لهم ، كالماضي ، خصال فخر الدين الكبير •

ولكن الثروة المجرمة ، حكمت عليه اخيرا بالفناء والتدمير، فقد حملت افرادا من الجماعة التي رافقته على خيانته في دياجير عزلته (١) •

قبل ابحار جيش العدو بليلة واحدة ، غلبه نعاس طويل ، هادىء ، فاغتنم كاتم اسراره فرصة استغراقـه في النوم ، وادلى احد الشبان بحبل ، مكلفا اياه اطلاع الاميرال على مكان المغارة المجهولة التي يختبىء فيها الامير •

فقد كان بين مرافقي المعني ، خائنان نكثا بالعهد ، فـي حين ظل الاخرون امناء يحافظون على البطولة الكاملة ، والاخلاص التـام •

وما اكثر ما يؤدي ترجـرج القلب البشري الـى حضيض النذالة ويفقد المشاعر الانسانية •

وما اكبر العظة التي يعمق جذورها ، هذا المثل : « على المرء ان يكون حكيما في الاحتراز من اشد المقربين اليه ، فالعظماء يجب ان يرهبوا العاقبة ، ويعرفوا اليقظة اذا ارغمتهم الحاجة يوما على الافضاء بسر » •

---

١ ــ يعني ان الثروة التي كان المعني الكبير يستخدمها للقضاء على اعدائه ، هي التي اغرت اصدقاءه بالغدر بـه •

وما اكثر الموظفين الذين يتظاهرون بعظمة التضحية بأرواحهم من اجل رؤسائهم ، ثم تبرز في اعماقهم طبيعة النذالة والحقارة ، اذا لم يكن الخوف من العقاب رادعا لقلوبهم الآثمة .

وصل الخائن الى خيمة الاميرال لينشر الفرحة في المعسكر كله ، غير حافل بحقارة العمل الذي أتاه . واسرع الاميرال في الاستيضاح عن الطريق التي عليه ان يسلكها الى فخر الدين . ولكن حرصه وحذره الهماه التريث .

فكر القائد التركي في الامر مليا ، لان الاموال التي رجا ان يحصل عليها من الامير الدرزي استولت على مشاعره وخشي اذا هو لجأ الى العنف ان يقضي على حياة المغني الكبير فتفلت من يده الثروة المنتظرة، لذلك بعث برسول اليه، واقسم له بعمامته (١) انه لن يعتدي عليه ولا على املاكه ، اذا شاء ان يسلم نفسه .

الملت بالامير فخر الدين رجفة هائلة ، على اثر ذلك الانذار المحزن ، ولكنه قبل بشروط العدو ، بعد ان امل في كسب قلب السلطان والتأثير فيه ، بيد انه أضاف اليها شروطا ثلاثة بعث بها مع الرسول القادم الذي كان على علم بنيات جعفر الخفية .

الشرط الاول ، ان يعطى الحرية لمقابلة السلطان ، وان يستقبل بالرايات المنشورة ، وعزف الموسيقى ، وان تكون برفقته حاشيته الخاصة التي تبلغ ثلاثمائة رجل .

والشرط الثاني أن يسمح له بنقل مليون — سيكان (٢) — ذهبا ويأخذ اربعة عشر جملا تحمل بعض متاعه .

---

١ — ان هذا القسم عند التركي ، هو افلظ ما يعرف من الايمان .

٢ — نوع من العملة .

والشرط الثالث ، ان لا يساق كعبد خاضع لنصر الغالب ، وان يستقبل كما يستقبل الباشوات •

ولم يتردد الاميرال فى قبول الشروط ، لانه يشعر فى نفسه بسعادة لا توصف وهو يقبض على عدو كان يئس من اخضاعه •

وهكذا رضي الاميرال بكل ما تحمل تلك الشروط ، فخرج فخر الدين من مغارته ، راحلا الى استانة ، يرافقه ولداه •

***

ما كاد مراد يتلقى النبأ ، حتى تبدلت فى نفسه مشاعـر الغيظ من الامير ، وجذبته المناقب الرفيعة المشهورة التي تميز بها المعني فاعطاه حقه من التقدير والاحترام ، وتلهب شوقا ليرى ذاك الامير الدرزي العظيم ، ممنيا نفسه بالاستعانة بارشاداته ونصائحـه •

قال « بسبيبي » :

ما كاد نبأ وصول فخر الدين يبلغ مسمع السلطان ، حتى غمرته فرحة عارمة ، ورغبة ملحة فى ان يرى ذلك العظيـم الذي طبقت شهرته الآفاق ، فاعجب الناس بفضائله ، وثرواتـه الطائلة ، فخرج بنفسه يجري مع احد الباشوات ، ليراه بعيدا على انفـراد •

وما كاد السلطان يلتقي فخر الدين فى الريف ، حتـى استوضحه عن شخصيته ، وعن الدوافع التي حملته الى تركية ، وطلب منه معرفة اعدائه ، والسبب الذي دفعهم الى طلبه •

وتظاهر الامير بانه لم يعرف السلطان ، حاسبا اياه احـد موظفي البلاط ، فسرد له قصته بكلمات موجزة ، واطلعـه على اسماء الذين سببوا اضطهاده ، وانتهى بحكاية مؤثرة عن المعاملة

التي لقيها ، بحجة تنفيذ رغبات الباب العالي .

وقد استطاع بفصاحته ، وجرأته ان يؤثر فى السلطان ابلغ التأثير ، آخذا منه وعدا بأن يخدمه بكل ما تملك يداه ، وبكل ما تسمح بـه سلطته .

وهكذا اضمر السلطان لفخر الدين التقدير والاحترام ، بعد ان وجد فيه ، الشخصية القوية الجديرة بالتقدير ، ومـا كاد يعود الى استانة حتى اعد عرشا رائعا بجانب عرشه ،ليستقبل فيه الاسير الكبير ، ثم اصدر الاوامر المشددة ، بان تحسن معاملته ويقابل بما يليق بالعظام من الرجال .

وقد سبقت قدوم فخر الدين ثمانية صناديق من الذهـب ، قدمت هدية الى السلطان .

وكان دخوله البلاط بعد ذلك كما توقع ، اذ عزفت عنـد مروره الموسيقى ، ونشرت الاعلام ، واحاط به الحـراس ، ومشت خلفه الحاشية ، وهو يتقدم الجميع بين جدارين من جنود الامبراطورية نحو ديوان السلطان الذي اجلسه الى جانبه على العرش الثاني الذي اقيم خصوصا له . .

تحدث فخر الدين الى السلطان ، طويلا ، فاعجب هذا به ، ومنحه التبرئة من كل ما نسب اليه ، واعدا اياه بالوفاء لـه ، والعمل على ارضائه ، والاستئناس برأيه كلما الم بالامبراطورية امـر مهـم .

لقد اعجب هذا السلطان الكبير بفخر الدين لدرجة انه لم يجد غضاضة فى ان يصرح له ، بانه عقد النية على ان يتخذه صديقا، وأبا ووزيرا امينـا .

كان فخر الدين قوي النفوذ ، مهابا ، ولذلك استطاع ان ينال بهداياه ، هذا الاستقبال الخاص •

وكان يعرف فى مثل تلك المناسبات ، كيف يجعل الناس يحسنون معاملته ، ويعطونه فوق ما يستحق ، وفى مقدوره كذلك ان يحدد الوقت الذي يظهر فيه تفوقه واستعلاءه ، وجدارته •

ولقد استفاد من تلك الترتيبات التي خصصت له ليزيد من تقدير السلطان لمناقبه ، فاستأثر بتفكيره ، وسيطر على آرائه ، وبدا المتنفذ الاقوى فى البلاط ، لا تتم قضية الا برضاه ، ولا يسير عمل الا بمشيئته ، بعد ان كان المستشارون فيما مضى هم الموجهون لادارة الدولة •

ولا يخفى ان من يحصل على مثل هذه الحظوة ، ويتمتع بمثل تلك المواهب ، لا بد له من السقوط الحتمي ، بسبب مكايد الحساد •

فصاحب الحظوة ، دوما ، عرضة لمؤامرات الناس اجمعين، ومن الضرر الفادح ، والخطأ الكبير ، ان يمنح الملوك احد المرؤوسين عطفهم ومحبتهم ، ويشرفونه بصداقتهم وثقتهم ، لان ذلك يعود بالضرر على صاحب الحظوة نفسه •

وهكذا ، فان بطانة السلطان حقدت على الأمير ، وتربصت به الدوائر ، خشية ان يتخذ من دالته على الملك ، سبيلا الى الانتقام منها ، وخصوصا الاشخاص الذين اساؤوا الى فخر الدين من قبل ودسوا عليه • فقد امسى هؤلاء فى خوف شديد مقيم ، وذعر لا يعرف الهدوء •

كان خصوم فخر الدين جميعا ، مقتنعين بأنه لن ينسى

اساءتهم واعمالهم السابقة ، لذلـك اخذ كل منهم يرتجف من الخوف ، ويحسب لكل بادرة الف حساب .

اما كبار الموظفين فقد وجدوا ان سلامتهم تتوقف علـى الخلاص من الامير الكبير ، وان نجاتهم لا تتم الا بتدميره ، ولكن هذه الخطة ليس تحقيقها بالامر السهل ، وهي التي تعترضهـا العقبات وتكمن فى تنفيذها الاخطار . ولكن تلك العقبات كانت في الحقيقة تزيد اولئك الخصوم تعصبا وعنادا في عداوتهم .

والانذال الذين لا يقيمون للكرامة اعتبارا هل يعدمون يوما الوسيلة التي يتمكنون بها من تنفيذ ما توحي به حقارتهم ؟

هذا الجيش من الحاسدين الوضيعين ، عرف اخيـرا الطريق التي توصله الى بلوغ هدفه وهي الاستعانة بالمفتي جاعلا منه خادما لمصالحه وستارا لاعماله . وسرعان ما جاء هذا المفتي الى السلطان مراد على رأس الجيش الحاسد الحاقد ، وراح يوغر صدره ويتهم فخر الدين بانه صديق المسيحيين ، والكافر بديـن الاسلام .

استشاط السلطان غيظا ، واخذته سورة من الحقد ، فثار كالاسد الغضوب ، وراح يضرب بقدميه مهددا متوعدا .

ووجد الحساد الفرصة سانحة فاستثمروا ثورة مـراد ، وتمادوا فى التحريض واثارة الحفيظة ، وجددوا الشكاوى التي اقتنع الملك اخيرا بها وصدقها ، ولا سيما بعد ان عززها المفتي بالادلة التي رآها تؤثر فى مراد مما جعل الغضب يستفحل فيه ، واقسم على انه لابد قاتل فخر الدين الكبير .

واقتيد الامير الى الديوان ، ولدى وصوله اصدر السلطان

فورا حكمه المشؤوم بقتله وقتل اولاده واحفاده دون ان يسمح للمتهم بأي دفاع •

وما كاد الامير يحصل من قاضيه المتوحش ، على السماح له بلحظة يطلب فيها الرحمة من ربه ، حتى دار حوله اخرسان واستدار هو الى الشرق ، نكاية بالاتراك الذين يستديرون الى القبلة ، ثم رسم شارة الصليب (١) •

ولدى هذه البادرة ، غلى مرجل الغضب في صدر مراد ، فصرح ونار الحنق تتأكله (٢) « اسرعوا في شنق هذا الخنزير ، واقتلوا اولاده واحفاده ، حتى لايبقى من سلالة الكافر احد» (٣)

ونفذت الاوامر العلية باقصى السرعة ، ثم حمل رأسه على رأس رمح ، عبرة للشعب الذي هرع الى المشاهدة • ولاحت هناك عبارة تقول : «هذا هو رأس الامير فخر الدين الكافر ، العاصي» •

---

١ ـ حادثة كل مايقال فيها ، انها اسطورة مفتعلة . وفخرالدين الذي عرف كيف يقضي على التعصب الديني ، لايمكنه ان يثير تلك النعرة الطائفية قبل وفاته، لان في هذا العمل ايقاظا ذميما للتعصب المفرق واثارة للتفرقة الطائفية . وهذا ما كان الأمير الكبير العظيم بعيدا عنه .

٢ ـ هنا نظهر بوضوح نية الكاتب الذي يحاول ان يثير المسيحيين على الاتراك، فلم يجد افضل من الضرب على وتر الطائفية، الذي كان له في ذلك الزمن الصدى البعيد . والتعصب الطائفي المقيت ، تاباه نفوس الكرام ويترفع عنه المخلصون ، لان بلادنا هي مهد السلام وموطن الاخوة التي يبشر بها كل ذي راي سليم .

والدروز ، في ماضيهم وحاضرهم ، يعرفون ان الدين دعوة الى الوطنية ، ويؤمنون به مطهرا للنفوس ، يغسل القلوب من الادران ، ويبعد الشواذ عن العقول، ويؤدي الى الوحدة البشرية التي هي من صلب جميع الاديان على السواء .

٣ ـ لم ينج من الموت ، من ابناء فخر الدين سوى حسين الذي احبه السلطان وخصه بعطفه . اما اولاده منصور وحيدر وبال، فقد قتلوا معه .

حال الدروز منذ سقوط فخر الدين الى حكم الامير الذي يرئسهم الان

بعد التخريب الذي احدثه طمع الاتراك وغضبهم ، في وطن الدروز ... وبعد ان ادخلوا الاسنة في صدورهم ، هادمين ابنيتهم الجميلة ، معتدين على مدنهم ، مقتحمين قلاعهم ومزارعهم .

بعد كل ذلك كان من المفروض ان يظهر على رأسهم فخر الدين جديد يتحلى بالجرأة كي يعيد عزهم ، ويجدد نشاطهم ، فينهض بهم من هذه الوهدة التي ترددوا فيها ، معوضا عن خسرانهم ، دافعا الى البعيد اولئك الذين اضطهدهم الاتراك ، سائرا بهم ، كسلفه ، الى حدود النصر ، مثبتا حرية وطنهم ، مجددا الرعب الذي تفجره اسلحتهم .

هذا ما كان ينتظر من ملحم الاول(١) ، الامير الذي بقي من اسرة معن .

كان ملحم ابن الامير يونس الذي عرفنا قصة مقتله وهو يقاوم الاتراك ، وابن اخي فخر الدين ، ولكن دم الرجال لا يخلق دوما ابطالا ، كما ان السواقي التي تنحدر من النهر الصافي النقي ، مارة برمال من الذهب ، غالبا ما تفسد في مجار وسخة ، موحلة .

وكان ملحم يرى ارثه فريسة للاتراك دون ان يفكر يوما في استرجاعه . وكان المسيحيون قد التجأوا الى الجبال هاربين من الاضطهاد ، وكان حلفاء الدروز قد انسحبوا ، ولكن الجميع

---

٢ ـ ملحم الاول ، يعني به ملحم المعني وذلك لمنع الالتباس بينه وبين ملحم الشهابي .

كانوا يضمرون للاتراك العداء والحقد ، ويتطلعون باعين متلهفة الى رئيس يجمعهم تحت رايته .

لم يجرؤ الامير ملحم على التظاهر بصفات الرجل الـــذي يرغب فيه شعبه ، فقد كان فى طبيعته جبانا ، خبيثا ضعيف الامال مكتفيا بالشروط المخجلة التي تحفظ له ما خلفه الاتراك للدروز من مقاطعات .

كان له ما اراد ، فعرفته البلاد امــيرا عليها ، لكن لقب الامارة على الدروز لم يكن فى الحقيقة ، بالنسبة اليه ، اكثر من وهم ، فوطنه لم يزد فى اتساعه على مساحة ولاية يقوم عليها حاكم بسيط .

وملحم كان يأتمر دوما بأمر البلاط العثماني حتى انه لــــم يكن يتورع عــن اقتراف ابة وضاعــة ، اذا كان فى ذلك ارضاء للامبراطوربة . وعرف بظلمه لشعبه والعمل على قهر المسيحين(١)

---

١ ـ لا يخفى هنا ان المؤلف يحاول بما يكتب ارضاء بعض المسيحيين الذين عرفوا في ذلك الوقت بتطرفهم ، لاكتساب محبتهم ، حتى اذا دعت الحاجة كانوا لفرنسه جنودا مخلصين ، مع ان العهود المعنية لم تعرف ظلما ، ولا تعصبا ، ولا خيانة ، والمسيحيون يومئذ كانوا شعبا وفيا لوطنه ، واخوانه ، ومبادىء دينه .

ان الدول الاجنبية تحاول منذ القديم ، بحجة الدفاع عن دين ، او فئة ، التغلغل بيننا الدس والوقيعة ، تامينا لمصالحها . والذي حمل الكاتب على هــذه الثورة عدم اقدام الامير ملحم على الحروب الدامية ، المستمرة مع العثمانيين ، فهنالك رغبة ملحة لدى المؤلف في رؤية الدم يجري باستمرار على ارضنا ، نكاية بالاتراك الذين كان يمقتهم ، ويتمنى زوالهم حتى ولو ادى ذلك الى فناء الشعوب الخاضعــــة لحكمهم .

ومن المعلوم انه في عهد فخر الدين ، وحتى في العهود المعنية التي عقبت ذلك العهد ، لم يكن الحديث بالطائفية ليجري على لسان ، ومع ذلك نرى صاحــب الكتاب دائم التحدث عن الطائفية والتعصب لان له من وراء هذا الحديث ماربـــا

الذين هربوا من حمايته لاجئين الى مواطن الباشوات متوسلين اليهم ان يقبلوهم كلاجئين ، اما قومه الدروز ، فقد فرض عليهم توفير سبل المعيشة عن طريق قطع الطرق •

لن ندخل فى تنفيذ شخصية ملحم الاول (١) ، لان حكمه كان قائما على اسس واهية ولم تعرف فى عهده ثورات ، ولا فتوحات •

ان اميرا مثله ممعنا فى قسوته ، متماديا فى ظلمه ، مستبدا فى حكمه ، لا يكف عن اعتداءاته ، لا يمكن لنفسه ان تنضح بغير البشاعة ، والحقارة ، ولا يصح لاحد ان يؤرخ حياته ما دام غير خلبق بالتأريخ ، والكلام عنه يزعج القراء ويسبب لهم الضيق •

خاصا ، وهو مما لا يخفى على البصير .

ويظهر ان الكاتب لا يريد ان يقتنع بكون المعنيين للجميع لا للدروز فقط . كما يتجاهل ان الجميع كانوا متساوين في الحقوق والواجبات ، والوظائف وكل شيء ؟

١ — هو الامير ملحم المعني . والذي حمل المؤلف على الذم فيه ، هو توفيقه بين مصالح شعبه والعثمانيين محافظة على راحة البلاد ، وسلامها وهدوئها .

وقد اشتهر الامير ملحم ، على عكس ما يقوله المؤلف ، بالحكمة والدراية والتعقل ، فمدحه الشعراء ، وخلدوا ذكراه .

اما خلو عصره من الحروب ، فدليل على الامن الذي ساد البلاد ، والالفة التي عمت قلوب الشعب ، لا على الخضوع الذليل ، المهين الذي يحاول صاحب الكتاب ان يلصقه به .

اضطر الامير ملحم مرة واحدة الى الحرب ، حين حاول مصطفى باشا، والي الشام ، غزو لبنان فصدمه الامير ملحم ، في وادي القرن ، واشتبك معه في معركة حامية حالفه فيها النصر .

ولد الامير ملحم في دير القمر . وكان حكمه من ١٦٣٦ — ١٦٥٧ .

هذا الامير الجائر بحكمه ، هو الذي جعل الاجانب ينظرون الى الدروز على انهم من البرابرة ، بعد ان دفعهم ، هـو نفسه ، بنذالته وسوء تصرفه ، وظلمه ، الى قطع الطرق والغدر ، والعنف، واعمال الاستفزاز (١) .

لسنا نأتي بجديد اذا قلنا ، ان ارباب النفوذ في الحكومات ، يتخذون من عيوب ملوكهم سبيلا الى الثروة والجاه ، ولكـن على الغالب لا يجاري انحرافات الملوك الا القلة من رجال البطانة ، اما الكثرة فترغب في اظهار الملك العاطل اشد بشاعة مما هـو ، واكثر عيوبـا (٢) .

والذي خلف الامير ملحم احمد المعني على امارة الدروز (٣) هو موسى علم الدين .

وكان الاثنان لا يعملان الا باشارات البلاط ، مكرسيـن نفسيهما لمصلحة الامبراطورية العثمانية ، كما كان سلفهما ملحـم الاول .

---

١ ـ هذه الثورة على الامير ملحم التي اصاب رشاشها الدروز ايضا ، مردها الى ضعف الامتيازات الفرنسية في عهده ، فقد كان في مهادنته العثمانيين اضعاف للعلاقات الفرنسية مع لبنان الذي تريده فرنسه خاضعا لنفوذها .

٢ ـ وهنا ايضا ، يظهر جليا الوعظ الذي يوجهه الكاتب الى ملك فرنسة ، فيحذره من البطانة التي لا تستر عيوب الملوك ولا انحرافهم ، معبرا ، في ذلـك عن نقمة الشعب التي كانت تتجلى في القلوب وعلى اطراف الشفاه .

٣ ـ توفي الامير احمد في دير القمر سنة ١٦٩٧ ولم يرزق بنين فانقرضـت بعده سلالة الامراء المعنيين . وفي ايامه ظلم الحماديون المسيحيين كثيرا ، فدافع عنهم الامير احمد ، مسهلا دخولهم الـى لبنان الجنوبي ، وجبل عامل .

وقد ثار عليه اليمنيون ، وسلموا الحكم لال علم الدين سنة ١٦٩٣ ، ولكنه عاد فتغلب عليهم وانتزع الحكم من ايديهم .

ويبدو ان موسى علم الدين (١) فاق سلفيه وحشية ولصوصية ، واكبر دليل على ذلك البعثة التي اوفدها الموارنة الى لويس الرابع عشر فى فرنسة تطلب منه حماية المسيحيين من الاتراك والدروز .

لم يجرؤ الباب العالي على رفض الحماية التي طلبها الموارنة من ملك فرنسه الكبير المبجل ، الذي ناب عنه فى هذا الطلب سفيره لدى الباب العالي .

وهكذا استعاد الموارنة حياة الامن والاستقرار ، وانصرف الدروز الى زراعة الارض ، بعد ان جعلت منهم الحاجة ارباب صناعة ، لكن روح الهمجية بقيت مسيطرة على نفوسهم حتى مجيء ملحم الثاني الذي تمكن بنبل الدم الجاري فى عروقه ، وبموت موسى علم الدين ان يتولى امارة الدروز .

وملحم الثاني هو الذي يحكمهم اليوم ، وهو الذي يعيد الى ذاكرتنا تلك الايام الحلوة التي خلقتها عبقرية فخر الدين الكبير ، وحكمته .

ان الرأي السائد ، يخلط فى الغالب بين الموارنة والدروز

---

١ - في سنة ١١٦٩٣ سافر الامير موسى علم الدين مع الصدر الاعظم علي باشا الى استانبول ، مستعيدا مكانه لدى الباب العالي ، وقد تمكن من استعادة اقطاعات بني علم الدين في الشوف ، والجرد ، والغرب ، وكسروان ، وجزين . وامره الباب العالي باستئصال بني معن ، ولكن الامير احمد المعني قدم بدروز وادي التيم الى الشوف ورشا والي صيدا كيلا يساعد الامير موسى . فاضطر هذا الى الفرار الى دمشق .

وفي سنة ١٧٠٩ تولى الامير يوسف اليمني علم الدين ، الشوف ، فسار اليها مع الامراء من آل علم الدين ، ولكن الامير حيدرا الشهابي دهمهم وقتل جميع الامراء من آل علم الدين ، ولم ينج منهم احد .

ويقال ان اميرا واحدا استطاع النجاة وهرب الى دمشق ، ولكنه سرعان ما مات فيها ، وانقطعت اخباره .

الذين يرجع اليهم تبديد هذا الزعم (١)

والذي جعل الناس يعتقدون ذلك هو تجاور الطائفتين والتحالف المتين الذي وحدهما ايام فخر الدين . وتجدد في ايام ملحم الثاني (٢)

ولكن الموارنة يختلفون كثيرا عن الدروز . اصلا ومعتقدا . وسموا بالموارنة نسبة الى القديس مارون، اما اصلهم فيوناني (٣)

ان تقديرهم للاب مارون حملهم ، ايام انشقاق الكنيسة في الشرق ، على الالتفاف حوله ، في مركز اقامته لانه اشتهر باعمال التقوى . وفي السنتين الثامنة والتاسعة لحكم الامبراطور قسطنطين ، استولوا على كل البلاد التي تقع بين جبال طوروس ، ومدينة القدس ، واصبحوا سادة عدد كبير من مرتفعات لبنان .

١ ــ تماسك المسيحيين والدروز حمل الاجانب على عدم التفريق بينهم ، وان دل هذا على شيء ، فعلى عدم وجود اية نزعة طائفية في تلك الحقبة من التاريخ ، وانصهار الجميع في بوتقة الوطنية الصحيحة ، وسابقهم الى الدفاع عن الوطن والسعي لعمرانه .

وحبذا لو قامت المدارس اليوم ، وخصوصا الرسمية منها ، بتدريس تاريخنا القديم بعناية واجتهاد كي ننشا الاجيال الطالعة على ما كان عليه الاسلاف من الاتحاد والتحاب والتعاون في جميع المجالات ، اذ كانت الالفة توحد القلوب وتجمع الفرقاء جميعا على حب لبنان . ولو ترفعنا نحن اليوم عن النعرة الطائفية والفرضية المتهورة والحزبية الهوجاء ، لقال عنا الاجانب ما قالوه عن اجدادنا في عهد فخر الدين .

٢ ــ المقصود « بملحم الثاني » الامير ملحم الشهابي . ولسنا ندري ما الذي حمل المؤلف على تجاهل الفترة الفاصلة بين حكم الامير احمد المعني والامير ملحم شهاب . وهو لم يذكر شيئا عن الامير بشير الاول ولا عن الامير حيدر شهاب الذي تنازل لابنه ملحم عن الامارة سنة ١٧٣٢ .

٣ ــ يظهر من هذا التعريف ان المؤلف لا يعرف كثيرا عن اصل الموارنة ، فهو يجهل أن اسرا مارونية كثيرة هي من اصل عربي صريح ، وينفي بعض الموارنة العالمين كون بعضهم يمت الى الاصل اليوناني باي سبب . ويدل سياق الحديث على ان المؤلف يبغي من بعض ما يكتب ، تحقيق مارب لا اثبات حقيقة .

وسرعان ما انضمت اليهم جماعات من الاجانب والخـــدم والعبيد . فصاروا مصدر رعب للاعراب والارمن الذين حاربوهم فانتصروا عليهم ، وسموا بالعصاة لانهم كانوا يقومون بالحروب دون معرفة السلطان او طلب اذنه .

وهم الان ، منتشرون فى جبال لبنان ، وفى مدن سورية ، وحتى فى جزيرة قبرص . ولكن الكثرة من الموارنة يقيمون فى كسروان ، وهي المنطقة التي يملكها الدروز .

وهناك اقاموا نوعا من الحكم الجمهوري متنعمين بالمناخ الطيب ، اللطيف ، والارض الخصبة الكثيرة الغلال . وهـــم يمارسون الطقوس الدينية بانقى معانيها .

ويقوم على الرئاسة الدينية فيهم حبر يحمل لقب « بطريرك انطاكية » يضم اليه الحرس الكهنوتي ، وتحت امرته وكـــلاء الكنيسة الذين يحملون لقب « المطارنة » وكثير غيرهم مـــن الرعايا الذين يقومون حسب ارادته ، بالادارة الزمنية .

وهؤلاء الموارنة يتبعون طقوس الكنيسة القديمة ، فى امـــور الزواج ، وتناول القربان .

وهم يعيشون فى حماية امير الدروز ، وينصاعون لاوامره فى الحروب . وكبيرهم يسكن فى كسروان قرب بيروت ، بصفتـــه احد ولاة الامير ، واحد قواده .

فمن الطبيعي اذا ان يجعـــل منهم التحـــالف مع الـــدروز قوة هائلة ، لانهم يملكون وحدهم جيشا لا يقل عدده عن اربعين الف مقاتل ، مدربين احسن تدريب .

لائحة لبلدان الدروز

تقع امارة الـــدروز فى المنطقة الكائنـــة بين السلسلتين

الشرقية والغربية .

وهذه الجبال التي تعطي في استدراتها شكل نضوة الحصان(١) يفصلها عن البحر ، سهل خصب تسقيه انهار عدة فتزيد في خصبه .

وهناك واد طويل يفصل بين السلسلتين الشرقية والغربية ، كان يسميه الاقدمون « سورية المجوفة » وقد لفتهم ، واستحوذ على اهتمامهم . وهذا الوادي كان يفصله عن سورية ، في القديم ، حاجز زالت اثاره ومعالمه .

ونسمي ايضا لبنان منطقة الجبال الغربية التي تمتد من كسروان الى حدود صيدا .

اما « انتي ليبان » فهو القسم الشرقي من لبنان ، ولا يؤلف مع لبنان الا سلسلة من الجبال تمتد من الشمال الى الجنوب ، ومن الجنوب الى الشمال ، وتعطي شكل نضوة الحصان كما اسلفنا .

اذن ، فان مساحة هذه الامارة لا تتوقف عند حدود المنطقة التي تحيط بها الجبال ، وانما تمتد الى ابعد من ذلك ، فحدود امارة الدروز هي الجليل والجزيرة العربية من الجنوب وصقلية في الشمال ، وسورية العليا من الشرق ، والبحر وجزيرة قبرص من الغرب .

واذا كان هناك بقعة في الارض سخت عليها الطبيعة ، ومنحتها البركة ، فهي ولا شك بلاد الدروز .

يكفيهم ان يكونوا في مأمن من الغارات المفاجئة ، يحموز

---

١ ــ ان هذا التشبيه خاطىء ، اذ ان جبال لبنان ليس لها هذا الشكل .

حدودهم ، ويتحدون اي مهاجم تسول له نفسه مهاجمتهم .

ولا يمكن الدخول الى وطن الدروز ، الا عن طريق مضايق لا يستطيع عدد يفوق ستة الاشخاص ان يجتازها دفعة واحدة .

وهذه المضايق ، اما محوطة بمهاو رهيبة ، او محددة بمغاور تتسع لعدد كبير من الجنود ، تكفيهم الحجارة سلاحا يفتكون به ، باشد اعدائهم جسارة وبأسا .

من هنا يمكننا ان ندرك سهولة نقل القوت والمعدات والمدافع التي تحتاج اليها جيوشهم ، كما ان طبيعة البلاد تجعل الاستيلا على مدد الاعداء واسلحتهم امرا ليس بالعسير .

والمنفذ البحري كذلك ، عسير ، يصعب دخوله . فمرفأ بيروت ، الذي تحميه قلعة هائلة ، تسيطر على البحر سيطرة تاملة ، هو المكان الوحيد الذي يمكن النزول فيه(١) .

ومن هذا المرفأ تنطلق تجارة الدروز ، فهو مركز الاستيراد والاصدار وقد اقتضى انشاؤه نفقات فاحشة ، وكلف مجهودا جبارا ، لكنه والحق يقال من احسن الثغور ، واكثرها امانا .

ان مدينة بيروت التي انتقلت الى ايدي العثمانيين مع

---

١ - يدرك القارىء ، من هذا الوصف لموقع لبنان ومناعته ان الرغبة فى غزو هذا البلد ، من جديد ، ظلت مستحكمة في الفرنسيين حتى بعد اندحار الصليبيين ، ذلك لانهم يعلمون ان اسلافهم تمتعوا بحياة ناعمة في جوار الدروز ، ويثبت وجود هذه الرغبة اهتمام المؤلف بالناحية الحربية وتقدير قوة الدولة الدرزية الحربية ، وهو يبغي من هذا الوصف تمكين الفرنسيين من تجهيز القوة العسكرية التي يجب توفيرها اذا ما ارادت فرنسة القيام بالغزوة .

بمدينة صيدا ، كانت تحت حكم الامير فخر الدين منذ عشرين سنة ، فالابنية الجميلة ، والحدائق الغناء التي خربها الجنود العثمانيون ، اعادها الامير ملحم الثاني • انها تشهد اليوم بعظمة هذا الامير ومقامه الكبير •

وعلى بعد سبع عقد من بيروت تقوم دير القمر : المدينة التي اتخذها الامير مركزا لاقامته ؛ وهي تقع فى منطقة الشوف ••• الى الشمال الشرقي من ولاية صيدا •

وهذه المنطقة هي اجمل مقاطعات الدروز • واشدها اعتبارا ، وتشتهر فى سورية بجودة حريرها ونعومته •

نجد فيها تقريبا كل ما نجده فى منطقة كسروان • ولكن خمرها اقل جودة وقمحها نادر ؛ اما القطن الذي تنتجه فجيد •

اما المناطق الاخرى فهي مناطق : الجرد ، والمتن ، وشحار الغرب ، ومرجعيون ، ووادي التيم ، الذي ينبع فيه نهر الاردن : الحد الفاصل لبلاد الدروز من ناحية الشرق ، وبدء المنطقة التي تضم مرج الخيام وحوران اللذين يديرهما حكام دروز يخضعون للامير ، ويعودون اليه فى جميع الشؤون •

ونهرا بيروت والليطاني ، وغيرهما من الانهار التي تجري فى وطن الدروز ، تطوف عادة فى بعض فصول السنة ، وهذا الطوفان لا ينتج عنه اي ضرر ، بل على العكس ، فانه يزيد الاودية والحقول خصبا وعطاء ، لان الطين الذي تتركه الماء على الضفاف ، تغني الارض بالمواد الضرورية •

وهذه الانهار صالحة للملاحة(١) ، وليس من الصعب شق قنال الى الفرات الذي لا يبعد عن بلاد الدروز سوى خمس

---

١ ـ هذا خطا ومخالف للواقع ، فليس في لبنان انهار تصلح للملاحة .

وعشرين عقدة (١) .

لقد عقد الدروز مع الجزيرة العربية المعاهدات ، وقاموا بالاتصال التجاري ، فسلكوا اليها طرقا بسيطة احدثتها اقدامهم وحوافر خيولهم فربطوا بعض المدن والقرى والمزارع ببعض حتى حدود الجزيرة المذكورة .

يتألف لبنان من اربعة اقسام من الجبال يرتفع الواحد منها فوق الاخر ، فالاول خصب غني بالحبوب والفواكه .

والثاني احدثته عناية الاهلين ، فجعلت الحياة والخضرة فيه، بعد ان كان يملأه الحصى ، ويغمره الشوك .

والثالث ، وان كان اعلى من غيره ، فهو جميل ، غني بالبساتين والكروم ، تغطيه اشجار خضر بديعة ، جعلت الاقدمين يحسبونه الجنة المعهودة للجنس البشري ، اذ يقوم فيه ربيع دائم ، مستمر .

وفي قمة الرابع ، نرى الارز الخالد الذي تحدثت عنه الكتب السماوية ، ويقطن اسفل هذا الجبل ومنحدراته الموارنة (٢) .

---

١ ـ اين نجد تلك السهولة في شق تلك القنال ؟ .. ان المؤلف لم يزر بلدنا ، ولذلك فهو يخطىء كثيرا في معلوماته الجغرافية .

٢ ـ وفي وصف الكاتب لجبال لبنان خطأ أيضا ، فالارز لا يقتصر وجوده على قمة واحدة ، فهناك ثلاث غابات ينمو فيها ارز لبنان المشهور غير غابة الشمال ، وهي غابة عين زحلتا وغابة الباروك وغابة معاصر الشوف . وفي هذه الغابات اشجار اكثر ضخامة من غابة الشمال ، وموقع هذه الغابات ومناظرها اجمل من الغابة الشمالية ، فهي تقوم في امكنة مطلة على البحر ، ولا تحيط بها سلسلة من الجبال تجعل رؤيتها متعذرة من بعيد ، كغابة الشمال التي شهرتها العناية لا الموقع الطبيعي ، فاذا توافرت للغابات الثلاث العناية اللازمة فاق عدد زائريها عدد زائري تلك ، لقصر الطريق الى غابات الشوف .

قال نانس دنديني فى تأملاته عن لبنان ، مشيرا الى الجبل الرابع : « لقد جمع الموارنة الحجارة من هنا وهناك ، ليقيموا منها جدرانا عالية تخفف من حدة انحدار الجبل الاجرد ، القاحل الذي جعلوا منه مزارع جميلة ، خصبة ، دائمة الاخضرار ، يمكن حرثها بسهولة . فكثرت اشجار العنب وغيرها وفاضت غلال الحبوب ، وامتلأت الارض بانواع كثيرة من الطيور . ولكن شتاء هذا الجبل على الرغم من كل ذلك ، قاس ، يكثر فيه الجليد .

اما الوادي الذي يفصل جبال لبنان عن « انتي ليبان » فيعد اخصب منطقة فى نصفي الكرة المعروفين ، بعد أن يسقيه نهر يقطعه من طرفه الاول الى طرفه الاخر (١)

اما القسم المقابل تقريبا لهذا الوادي ، اعني السهل الفسيح الذي يبدأ من طرف لبنان ممتدا من اليمين الى الشمال ومنتهيا الى البحر فتقطعه انهار عدة (٢) ، تجعل المراعي كثيرة فسيحة ، وهو فى كل نواحيه مأهول بالسكان ، وكل ارضه يستغلها الموطنون .

اما مناخه فمعتدل ، ولا تقسو عليه الفصول ولا يعرف الجليد ، وان يكن السكان يشكون القر فى بعض الاحيان .

تعطي ارض هذا السهل موسما مزدوجا اي مرتين فى السنة ، وفيه كثير من الاشجار العطرة ، فاشجار الحامض والبرتقال وافرة جدا ، حتى تكاد تحاذي جميع طرقه ، وكذلك اشجار الدراقن

١ — هو يعني سهل البقاع اما النهر فهو نهر الليطاني .

٢ — يقصد بهذا السهل . الساحل الخصب القائم الى جانب الشاطىء .
واهم الانهار التي تسقي هذا السهل الساحلي هي : نهر ابراهيم — نهر الكلب — نهر بيروت — نهر الدامور — نهر الباروك او الاولي .

والتفاح والاجاص فانها كثيرة ايضا وغلتها تفيض عن استهـلاك الموطنين •

واشجار اللوز والزيتون كثيرة العدد تعطي افضل انــواع الزيوت اما شجرة القطن فتنتج ذلك النــوع من قطن قبرص المعروف فى اوروبة بقطن القدس • وهي شجرة شائعة وافــرة الغلال •

ولكن شجرة التوت تتبوأ المركز الأول بفائدتها ، لان الحرير هو اكبر ثروة للبلاد •

اما الغابات فتغطي مساحة كبيرة من الأرض ، وتنتج انواعا مــن الاخشاب تستعمل فى شتى الصناعات ، كصناعــة المقاعِـد والسفن وغيرها •

والكرمة ممتازة ، وخمرها لذيذ يطلبه الاجانب بشغف ؛ فحبة العنب اكبر من ثمرة الخوخ وتمتاز بحلاوة شديدة ، لذلك يسعى اليهود دوما الى تذوقها ، ويعملون بجــد لافتتاح ارض الميعاد ، بعد ان وجدوا هذه الثمار اللذيذة فى ايدي جواسيــس يشوع •

القمح متوافر ايضا ، وفائض عن الحاجة ، فبلاد الدروز يمكنها ان توفر لغيرها من القمح مقادير كبيرة ، ففي الماضــي كان ابناء فلورنسة يتخذون مؤونتهم من قمح هذه البلاد •

المن ايضا متوافر ، ويفوق بجودته جميع المن المعروف فــي اقاليم اخرى •

وملح البارود موجود بكثرة ، فمهما اخذ منه لا يخشــى عليه ان ينفد ولكن يجب ان يميز بينه وبين نوع من الرمـــاد موجود فى ضواحي صيدا ، تصدر منه مقادير كبيرة الـــى مرسيلية ، وبعض الموانيء البحرية •

ينتج وطن الدروز كذلك نوعا من النباتات يحرقه المزارعون

بعد جمعه ، فيعطي رمادا يصنع منه البلور .
وهذه النباتات تستحق الاهتمام والدرس .
ثم هناك عشب اليرباس المشهور الذي ينبت ايضا في لبنان ، فيلتمع ليلا ناشرا ضوءا اشبه بضوء شمعة مشتعلة .
وهذا الضياء لا يلبث ان يتبدد عند مطلع الصباح .
والرأي العامي السائد عند الاهلين ، ان هذا العشب مختص باستحالة المعادن .
اما النبتة المسماة الروباس فلا تقل شهرة عن اليرباس ، ويتخذ منها الناس شرابا ممتازا لمعالجة امراض الكبد . وضعف المعدة .
وحرير هذا البلد هو اجود انواع الحرير المعروف في الشرق وينتج منه لبنان مقدار ٧٠٠ الف ليبرة .
والشمع والعسل يكثران كذلك ، فالنحلة التي وجدت نفسها فى ذلك المناخ الملائم لطبيعتها ، تتكاثر وتنمو باطراد ، وحتى فى الاحراج نرى خلايا نحل نشيطة ، عاملة ، كما لو كانت تحت رعاية المربين .
اما الارض فيظهر انها تحوي في جوفها مناجم غنية . ففي منحدرات بعض الجبال نجد نوعا من الحجارة اللامعة تتوهج كالمشاعل ، وهي دون شك ، دليل على وجود الحديد الذي نسميه في فرنسا « مار كاسيت » .
وتبدو اسنان الجداء فضية اللون ، كما ان الطيور موجودة بكثرة ،ويوازي حجم الحجل حجم الدجاجةعندنا ،والطيور هيمن الاغذية الفاخرة اللذيذة .
ويوجد في لبنانمن جميع انواعالطيور المعروفة في اوروبة، ولكن تفوقها جودة وعددا .
وهناك النسر الذي يبني اعشاشه في الاعالي ، فيبيض

ويتكاثـر .

كما ان الحمام واليمام والترغل تتكاثر في البراري والغابات، ولحمها لذيذ . اما الحصان فضامر ، دقيق ، ويظهر انه من النوع العربي الاصيل ، والعناية بتربيته تدل على مدى الاهتمام بـه . فالدرزي ليس له عمل غـير خدمة جواده ، لانه نـوع يستعمل للتجـارة .

وهناك الجمال المخصصة لحمل الاثقال ، لان طبيعة البـلاد تتطلب القوة والدراية ، والجمال للنقل افضل من الجواد .

ويستعاض عن الحصان بالحمار في الاماكن الوعرة لنقـل البضائع والحاجـات .

اما الحراثة فهي من خصائص الثور ، يستعمله الدرزي في حراثة الكرمة ، وفي الارض القاسية التي يتطلب جر المحراث فيها قـوة وشدة .

والغنم هناك هو اكبر من غنم قبرص والسواحل الغربية ، ولكن لحمه اقل جودة من اللحم الذي نأكله في اوروبة .

اما المعزى فلا تعطي نتاجاً مهما غير الجداء التي يتميز لحمها بطعمه اللذيـذ .

الامير ملحم الثاني (١)

اذا عرف الانسان كيف يسعد شعبه ، استطاع ان يسيطر على قلوب رعاياه ، وان يكون محبوبا من حلفائه ، بقدر ما يبث الخوف في نفوس اعدائه ، ويكون بذلك قد بلغ اقصى درجات الحكمة ، وارفع درجات الدهاء .

وتلك الصفات تهيء للحاكم الاحترام الشديد، وتثبت عظمته وتمكنه من الحكم مدة اطول ، مؤمنة له شيخوخة هانئة تنأى به عن تأنيب الضمير القاسي وخوف العقاب في اخراه ، وتبعده عن العذاب النفسي الذي يلازم المرء اذا لم يقم بواجبه نحو المهمة التي يضطلع بها .

تلك الصفات تجعل الاجيال المقبلة تردد اسمه ويصبح عنوان الاحترام والتقدير ، لا باعثا على الكراهية والتحقير .

ان ملحما الثاني قد مثل كل هذه الصفات التي اذا فقد الحاكم احداها عرض موقفه للخطر ، وشعبه للضرر ، وملأ ايامه مرارة وحسرات .

ناهزت سن هذا الامير الستين . وكان نير الفكر ، قوي الحجة ، ذا موهبة ممتازة ، توجه الحكمة احاديثه ويسير الاعتدال مقاصده ونياته ، سمحا كريم الخصال ، حلو المقابلة ، حسن التصرف .

وهو مع ادمانه الخمر ، والعيش على نمط الاوربيين ، صبور ، بعيد عن كل مغالاة او اعتداء .

---

١ ـ كان الامير ملحم الشهابي متدينا ورعا، احسن معاملة شعبه، محافظا على العادات المعروفة التي اتخذها كالقوانين، وقد اشتهر ببعده عن التعصب الديني . دخلت شوكة صبير في يده، فمرض على اثرها مرضا اضطره الى ترك الحكم . انصرف في اخر ايامه الى دراسة الفقه، ومعاشرة العلماء، والف كتبا في الشرع الاسلامي . مات سنة ١٧٦١ ، وقد استمر حكمه من سنة ١٧٣٢ الى سنة ١٧٥٤ .

بلاطه مهيب ، محبوب ، وهو مؤلف من عظماء البلاد ، واشهر اشرافها ، اما حرسه فيبلغ عدده ستة الاف رجل .

من الصعب معرفة الدين الذي كان يدين به ، فهو يؤمن بسنة الطبيعة ، ولا يظهر أي دليل على ايمانه بدين خاص .

وهو وان كان متزوجا بنساء عدة لا يمكن القول انه يتخذ الاسلام دينا ، لاننا لا نرى خلفه اماما ، ولا خطيبا ، ولا درويشا ، بل على العكس ، فقد كان على الارجح يميل الى المسيحية ، لفرط تقديره لشريعة المسيح واحترام سننه ، وتردده على معابد المسيحيين الذين كان يستشيرهم في قضاياه ، واضعا فيهم ثقة شديدة .

وعلى ما يبدو فان ملحما كان يؤمن بمذهب خاص ، يحترمه الشرقيون كثيرا ، وهذا المذهب يؤمن بوحدانية الله ، وبثالوث منبثق عن وحدته رافضا كل ما يخالف العقل ، حاسبا ما تبقى اخطاء لا تغتفر .

ان متبعي هذا المذهب ، يميلون الى الانس ، والبشاشة ، والعطف ، واللين ، ويؤمنون بان محبة الجار هي من محبة الله .
على نحو هذه الخصال كانت سيرة ملحم الثاني .

وعدا ذلك ، فان فيه جميع الفضائل ، انه يؤمن بان هناك حياة ثانية ، وان الحكام يجب ان يحسبوا حساب الله في كل ما يقومون به من اعمال ، ويصدرون من احكام .

ونقدر في هذا الامير حسن اختياره لمستشاريه ، والعناية التامة بترقية ذوي الاستحقاق .

وقصره مفتوح بوجه موظفيه جميعا . وفيه يقاضي الشعب بنفسه ، او بالاعتماد على عدد قليل من الافراد المختارين الذين يحكمون الناس باسمه دون مقابل .

ولكل موظف الحق في مقابلة الامير الذي كان يحفظ لنفسه سجلا خاصا ، جريا على عادة فخر الدين وغيره من الامراء العظام ،

لا يدون فيه فقط كل ما ينمو وينبت في بلاده ، وانما يسجل فيه ايضا المزايا البارزة في كل الرجال البارزين •

ان النواحي التي اتخذها الامـير واجبـا ، عليه ممارسته للمحافظة على عظمته ، هي :

مكافأة الفضيلة ، ومعاقبة الرذيلة ، واصدار الاحكام المشبعة بالدرس والتمحيص لتحاشي الوقوع في الظلم ، واعطاء الفرصة لاستقبال الغني والمحتاج على السواء ، والاصغاء التام الى شكاوى الناس جميعهم بعطف واهتمام ، واصدار احكام عادلة ، والبحث عن الكفاية وتنميتها ، واختيار الخدم الصالحين ، وابعاد من لمس فيهم التملق والرئاء •

يقدر مدخوله ، حسب عملتنا ، بستة وثلاثين مليونا •• وهذا ما يجعل دولته تماثل مملكتنا بالغنى ، بالنسبة للمصاريف القليلـة التي عليه انفاقها في تصريف شؤونه •

مميزات الشعب الدرزي

الدروز قوم طيبو السريرة ، نيرو الفكر ، ذوو مشاعر محببة، ولهم قامات كبيرة • وهم يتمتعون بقوة غريبة ، وخفة فائقـة • صبورون ، نشيطون ، مستقيمون ، امناء ، انسانيون ، يتمسكون بمثلهم حتى حدود الخرافة •

وفي الوقت ذاته هم ثابتون في احقادهم ، لا يخلفون وعدا ، ولا يغدرون ، ويقابلون اخلاص الناس لهم باخلاص مماثل •

ان اهانة درزي واحد ، تعتبر اهانة للوطن وللشعب باسره ، وهذا الشعور الجماعي يبعد عنهم شبح الحـرب مع جـيرانهم ، ويحفظ حياتهم في مستوى من الاحترام مرتفع •

والدروز ، كذلك يستاؤون من توجيه الاهانة الى الاجانب

الذين يعيشون في كنفهم ، معتبرين اهانة هؤلاء الاجانب صفعة موجهة الى الدروز شخصيا ، ومع ذلك لا يرضون لانفسهم ان يكونوا معتدين • مع العلم أن اقل تحقير ينالهم يدفعهم الى غضبة رهيبة ، فاجعة •

لم يستعمل الدروز الصكوك الخطية في المعاهدات ، كي يأمنوا غدر اعدائهم ، وخياناتهم ، ونكوثهم بالعهد ، مع انهم لاقوا كثيرا من الكذب والخداع في كثير من المرات •

وهم لا يلجأون الى مثل تلك الاساليب الخطية ، لانهم يعتبرونها غير خليقة بالاشراف من الناس ، فهي تضايقهم ، وتبدو لهم مقيتة ، محتقرة (١) •

والدروز شجعان بواسل ، ماهرون في استعمال الاسلحة التي يتمرنون عليها ، منذ مطلع شبابهم المبكر ، وهم محاربون ، بارعون ، يهوون الصيد ، لاقتناعهم بان لا شيء مثله يجعلهم مهرة ، أقوياء ، يحسنون التصرف في المآزق الحرجة ، ويخلق فيهم القدرة على تحمل اعباء الحروب •

وتلك التمارين تملأ اوقات فراغهم ، طابعة اخلاقهم بطابع خاص ، مميز •

والصيد حق من حقوق الجميع ، يقوم به الفلاح ، كما يتعاطاه ابن الطبقة الرفيعة •

والصيد المرغوب فيه عندهم ، هو صيد الدب ، والخنزير البري ، والنمر ، وهي حيوانات متوافرة في بلادهم •

يقود الدروز أولادهم الى الصيد ، عندما يستطيعون حمل السلاح ، فيكافئون منهم الذين يظهرون شجاعة في مواجهة

---

١ ــ هذه الخلال التي تميز بها اجدادنا الغابرون يجب أن تكون قدوة لنا في حاضرنا ومستقبلنا ، لا ان نقرأ عنها قراءة خاطفة ، اذا شئنا ان نكون جديرين بالانتساب الى الشعب الذي حكمه فخر الدين •

الاخطار ، وينتصرون على العقبات ، ويتسلقـون مغاور الجبال الوعرة بخفة ورشاقة .

وهذا ما جعلهم يحملون بحق لقب البطولة ، وحمل النـاس على الثقة بأن درزياً واحداً ، قادر على مواجهة اربعة من الاتراك ، دفعة واحـدة .

ان التمرين المتواصل على استعمال الاسلحة ، كان يمكـن ان يجعل من الدروز قساة غلاظاً ، لو لم تلطف فيهم القسوة التي تخلقها الحرب والصيد ، اخلاق لطيفة ، مهذبة .

وهم اصحاب بشاشة وأنس ، يلقى الاجانب بين ظهرانيهـم معاملة حسنة ، واخلاقاً رضية ، واستقبالا مهذباً وديعاً .

اذا عرف الاجنبي كيف يحظى بمودتهم ، ويقنعهم باخلاصه ومحبته ، وجد بينهم سبلا للثراء لا تتوافر له في وطنه ، ولكنه اذا قدر له ان يذنب مرة ، فان ذكرى ذنبه لا تمحى من مخيلاتهم ، وعند ذلك ، عليه ان ينجو بنفسه مسرعاً ، هارباً من بلدهم ، لان الرغبة في الانتقام منه تنتظره لدى كل لقاء .

تلك هي صفات هذا الشعب الغيور على مبادئه وشهرتـه ، العدو اللدود للغدر ، المتمسك بالشرف حتى الموت .

ان شدة احساسه بالاهانة ، تعلن عن سرعة الانتقام والغلو فيه .

وهناك شعور متأصل ايضاً في قلب هذا الشعب ، هو الحقد على اليهود والاتراك .

وهذا الحقد الذي يلقنه الآباء للابناء منذ وجودهم في المهد تولد من السرقات والاضرار التي أحدثها هذان الشعبان في حياة اجداد الدروز الاوائل .

ـ ان الذكـرى تنكأ الجرح باستمرار ، فتجعله أشـد فتكاً واعنف خطراً ، لذلك هم يعذبون اليهود في بلادهم ، فلا يحترمونهم ولا يضمرون لهم اي تقـدير ، وانما يظهـرون لهم الكراهيـة

والسخط (١) •

والفوائد التي يتقاضاها هؤلاء المشردون عادة لقاء ديونهم ، تكفي لان تجلب عليهم كره الدروز وغضبهم الشديد •

والاتراك كانوا يضمرون فيما مضى النفور والتعصب حتى السخافة المضحكة ، حتى انهم كانوا يتحاشون ان تمزج دراهمهم بدراهم الاوروبيين ، وان يمسوها قبل ان يطهروها بماء نهر ، او نبع جار •

وبقدر ما كان حقد الدروز على الاتراك يشتد ، كانت محبتهم للفرنسيين تتضاعف •

وبالرغم من تعرض بعض تجارنا لجوهرالدين ، فان الدروز لم يشاؤوا ان يحملوا أمتنا مسؤولية غدر بعض الافراد •

ويبدو انه من السهل علينا أن نثبت عندهم شهرتنا ، فتضعف تجارة الانكليز التي لقيت عندهم كل رواج وجعلوا لها المكان الاول (١) •

قال السيد « دارفيو » :

« ان الدروز يؤمنون بان ملك فرنسة عادل وليس بطاغية ، وأن اموال الفرنسيين يحصلها الشعب بطرق شرعية، بعكس أموال الاتراك التي لا يجنيها الشعب التركي الا بالاختلاس ، والفائدة ، وامتصاص دم الشعوب » •

---

١ ـ هذا الكره الذي يتكلم عنه الكاتب يضمره الدروز للاتراك لانهم اجانب سيطروا على البلاد العربية عنوة ، واستثمروا خيراتها دون حق ، اما الحقد على اليهود فلانهم فطروا على الطمع والاستغلال وجني المال عن اية طريق تتيسر ، واستئثارهم بالمنافع دون غيرهم ، وليست هناك علاقة للدين والمعتقد في هذا الحقد .

١ ـ يثبت حديث الكاتب ان المزاحمة على خيرات بلادنا نشأت منذ زمان طويل ، ومحاولة كل دولة من الدول الغربية استمالة طائفة من طوائف لبنان كانت بقصد الاستغلال السياسي وجني الارباح ، لا ناتجة عن وحدة المبادىء ، او رغبة في الصداقة المجردة .

ولا يتبادرن الى ذهننا أن التمارين الحربية والصيد ، هـي وحدها الاعمال التي يقوم بها الدروز •فهذا أمر يصبغهم بالهمجية، ولا يتفق مع الفضائل التي يمارسونها في حياتهم المدنية •

التمرين على السلاح عندهم ، واجب وطني ، لا يتطلب الا بعض الوقت ، والصيد تسلية حرة لا تتعارض البتة مع اعمـالهم البيتية التي يتعاطاها الاشراف والعامة ••• الفقراء والاغنياء ، على السـواء •

يحسب الدروز التجارة مهنة ذات اجرة ، وهذا المفهـوم يجعلهم يحتقرونها ، ولكن الزراعة وتربية المواشي ، فهما حسـب رأيهم ، من الاعمال الشريفة، وتربية الماشية يعيرونها انتباهاً خاصاً، ويفضلونها على الزراعة ، لان التجربـة علمتهم أن العناية التـي يولونها للحيوانات ، تزيد انتاج البلاد ، وتحسن نوعيته •

والدروز على اهتمام بالغ بدودة الحرير ، التي يهيئون لهـا كل ما تحتاجه لمضاعفة انتاجها ، وهي تعطيهم غلة ممتازة ، مكافأة لهم على اتعابهم التي يبذلونها من اجلها ، وحريرهم أجود انـواع الحرير المعروف عند جـيرانهم الفرس والهنود بنسبة أعلى مـن اضعـاف •

وهذا النتاج الذي يحصل عليه الدروز من تلـك الدودة ، يقدر بثلث نتاج الحرير في بلاد العجم والهند ، اذا نجا الدود من الامراض الوبائية •

ويهتم الدروز كذلك بالنحل ، ويحسنون معاملته مستخرجين منه العسل والشمع بمقادير كبيرة ، حتى أن فائض ما ينتجه النحل يكفي لاستهلاك أكبر الدول الاوزوبية •

ويعنى الدروز أيضاً باقتناء الخيول الاصيلة التي يأتون بها من الجزيرة العربية ، فيروضونها ترويضاً ممتازاً ، حافظين أنسابها، جاعلين أسرجتها ولباسها من جلود الدببة والنمور التي يدبغونها

ويجهزونها بأنفسهم .

ليس بين الدروز من لا يعمل ، فالغني والفقير يعكفان على الانتاج العام المشترك ، لان البطالة بالنسبة اليهم عار كبير .
وهكذا ، نرى الدروز يتقاسمون الاعمال ، فمنهم من يحرث الارض ، وآخرون يحصدون الغلال ، وغيرهم يعنون بتربية المواشي ، والنحل ، ودود الحرير ، وغير ذلك .
وهنالك من يعملون في غزل القطن ، ليصنعوا منه الستائر والحجب . وبعضهم يرعون الثيران التي تعطي أفخر اللحوم .
اما الفقراء فيجمعون تلك الاعشاب ، الغريبة ، النادرة ، التي تكلمنا عنها من قبل ، فيحرقونها مستخرجين منها الرماد الذي يتهافت الاجانب على شرائه .

ونرى أن الدروز كذلك ، يتمتعون بذوق خاص في انشاء
وفي السهل الفسيح الممتد من جبال لبنان الى البحر ، حيث الحدائق ، فطبيعة أرضهم ، واعتدال المناخ ، وموقع بلدهم يقوي فيهم هذا الميل .

لا تقسو الطبيعة ، ولا تعرف أيامها الجليد ، تتكاثر الاشجار ذات الثمار اللذيذة التي تكون دوما أما مزهرة ، او مثقلة بالثمار .
وبالرغم من اهمال الدولة للعلوم ، وانعدام روح التنافس في هذا المضمار ، فقد نبغ في تلك البلاد كتاب مشهورون ، لان الدرزي بطبيعته ، عميق النظرة ، ثاقب الفكر ، حاد الذكاء ، نافذ البصيرة .

ويعكف عقلاء الدروز على علم الكيمياء ، والطب ، ودراسة العقاقير ، وهم يرغبون كثيراً في فن الطباعة ، ولا شك في أنه سيبرز فيهم رجال عظام حين يمارسونها ممارسة دائبة .

ان اللغة اليونانية والسريانية والعبرية ، شائعة عندهم ومألوفة (١) ولكن لغتهم الاساسية التي يستعملونها في تخاطبهم فهـي العربية فقط .

أما التمييز بين الطبقات عندهم ، فيبدأ منذ الولادة ، حيث يقدم الامير ، حسب مشيئته ، اناساً على أناس .

والذين يولدون اصحاب رتب هم : الامراء ، وكبار الامة ، والمشايخ ، وهم يتمتعون بحقـوق كبيرة ، كالحكم المطلـق في مقاطعاتهم ، وشبه الاستقلال عن الامير . ولكنهم يتحدون فـوراً حالما تتعرض سلامة الوطن لاي خطر او عدوان .

ان قدماء الدروز جميعهم من الاشراف ، وهم يعرفون تماماً أصلهم وتحدرهم ، وينسب اليهم الافراط في الاعتزاز والفخر .

والرتب المميزة هي لحكام المقاطعات ، وقواد الجيـوش ، ولبعض الوظائف العسكرية التي لا يمنحها الامير الا لاصحـاب الكفاية والقدرة . ولذلك يأمل اي موظف ان يصبح ، ذات يوم ، من الطبقـة المعروفة .

ويمنح الجنود ألقاباً محترمة لانهم حماة الوطن ، وكذلـك رجال السياسـة .

---

١ ـ يقصد المؤلف هنا بالشعب الدرزي جميع الطوائف التابعة للدولة الدرزية ، لا الدروز وحدهم ، ولذلك تكلم عن تعدد اللغات عندهم .

نظام الحكم وسياسته الدولية

الحكم عند الدروز وراثي ، ينتقل الى الخلف الذكور دون الاناث . واذا اتفق ان استقال الامير من الحكم ، فان ولي العهد يتسلم زمام السلطة مكانه .

ويكون الوارث ابن الامير الاكبر ، الا اذا لم يرزق الامير ذكوراً ، فان الحكم في هذه الحال ينتقل الى أقرب الناس اليه ، اذا كان أهلا لذلك .

وابناء الامير ، اسوة بابناء الشعب ، يخضعون للتمرين على الصيد ، واستعمال الاسلحة ، لان ذلك يخلق فيهم الشجاعة والحذق والقوة التي يجب ان تتوافر في من تنتظرهم أعمال الدولة.

وهذه الخاصة لا نراها في الامراء الشرقيين الذين يترعرع ابناؤهم على تربية مخنثة ، تجعلهم جبناء ، غلاظاً ، فاسدين .

ولا يعهد في تربية الامراء الى معلمين ومربين، بل يترعرعون تحت رعاية آبائهم ، وباشرافهم .

والحكومة ، وان كانت تقوم على مبادىء حربية ، فانها تشبه الى حد بعيد ، حكومة ملوك فرنسة الاقدمين . فالامير له الحق بالتعبية العامة ... وبقيادة الشعب الى الحرب ... وبعقد المعاهدات والمحالفات ... وقيادة الجيوش ... وتعيين الموظفين.

لا يمكن ان تكون اسباب الحروب عندهم ، غير الدفاع عن كرامتهم اذا لحقت بهم اهانة او اصابهم اعتداء هدد حريتهم ، لذلك لا يعفى من الخدمة العسكرية أحد ، لان شريعة حكومتهم تفرض على كل فرد ان يقوم بقسطه في الدفاع العام .

أما اذا قام الامير بحرب ، لاسباب غير تلك ، وبدت لكبار البلاد خاطئة ، فانهم في حل منها ، ولهم الخيار بين ان يشتركوا

فيها او ان يقفوا موقف الحياد .

وبما أن هذا الامر اذا حدث ، يعرض البلد لخلافات أهليه تغذي مطامع الاعداء ، فان الامير لا يقوم بالحرب ، الا بعد أن يدرس أمرها دراسة موضوعية تبدو لشعبه عادلة ، صحيحة ، واجبة .

كما ان هذا لا يعني أن الامير، بصفته قائد الجيش، لا يمكنه فتح نار الحرب أو وقفها ، وتحت تصرفه فيالق منظمة ، مدربة أحسن تدريب ، يبلغ عددها من الكثرة بحيث يمكنها صد هجوم مئتي الف تركي ، عدا أن النصارى والمسلمين يخلصون له ، ويبذلون أنفسهم من اجله ، وهو يلقب « بحامي النصارى » و « أبي المسلمين » . وهذان الشعبان يخضعان لاوامره في الحروب .

ومن ناحية ثانية فان جنود القلاع والموظفين فيها ، يتعلقون به ، محترمين ارادته ، من قبيل الواجب ، والشرف ، والسلطة .

اذن ، يستطيع الامير ان يكون قوياً ، مهاباً ، دون ان يلجأ الى قوات حكام المقاطعات ، ولا شك في أن الحلف الذي يضم الموارنة والمسلمين هو أكبر دعامة لملكه .

ومهما بلغ الدروز من الشجاعة والقوة ، فانهم يكونون معرضين لمطامع الاتراك وتعدياتهم ، لولا هذا الحلف .

لهذا نرى الامير دوماً ، يبدي اهتماماً خاصاً بحلفائه الذين يحميهم ، ويقوم بكل ما يقوي عرى التماسك بينه وبينهم ، دون أن يخفف من هيبة سلطته .

وكلا الشعبين ، الماروني (١) والمسلم ، يشعر بضرورة هذا التآلف . وهذا التضامن الوثيق ، حمل البلاط العثماني على

---

١ ــ يبدو ان الكاتب يعني (بالموارنة) جميع الطوائف المسيحية ، وربما كان ذلك لجهله ان في لبنان طوائف مسيحية اخرى

اضطهاد اللبنانيين ، متفانيا في محاولة اخضاعهم وتفرقتهم ، وذلك ما قوى فيهم الشعور بالحاجة الى هذا الاتحاد قاضين على كل سياسة تحاول اثارة الشقاق بينهم •

وكان الباب العالي ، الذي اقلقه هذا التحالف ، اذا حاول الاعتداء على أحد المتحالفين ثار الجميع مؤتلفين لصد الاعتداء ، معتبرين أن اي أذى يلحق بفئة واحدة ، يصيب جميع الفئات ، وخصوصاً الاعراب فانهم كانوا لا يتوانون ، عند اي خصام ، عن الاقدام على قطع الطرق ، ممعنين في مهاجمة القوافل والحجاج •

أخيراً رأى العثمانيون أن لا مندوحة لهم عن مسالمة الدروز ومراعاتهم، والامتناع من اثارتهم، وعدم ترك المجال أمامهم للثورة على نير الامبراطورية ، كما حدث مع البربر ، وفي مصر •

والامير ملحم، على الرغم من العضد الذي وجده في حلفائه، أحسن التصرف مع الامبراطورية العثمانية ، لاجئاً الى الحكمة والمسايرة في كثير من الاحيان ، لانه يعلم جيداً ، ان تمتع الدولة بسلم طويل ، يقوي مركزها ، ويثبتها ، وينمي مرافقها أكثر من الانتصارات الحربية ، وهو يدرك كذلك أن وطناً محارباً ، ماهراً في فنون الحرب ، عليه أن لا يهمل التحصن ، وتوفير القوى الدفاعية ، لانه اذا اهملها زاد في قوة اعدائه وبدل بجبينهم شجاعة ومهارة •

لجأ الامير الى حسن التصرف ، والمسايرة الملائمة لرجال الباب العالي ، مجتهداً في ان لا يثير حسدهم وجشعهم ، متظاهراً بالفقر الشديد عند طلب الجزية التي يفرضها السلطان • وكان في الوقت ذاته حذرا كيلا يفرط في احترامه داخليا وخارجيا •

ان وضع الدروز يتطلب وضع قانون قاس ، فهم لا يتوانون عن الانتقام بسرعة اذا نالت الامة اهانة ما ، كما انه لا يمكنهم مقابلة حال كهذه بالرحمة واللين •

والذي يسترعي الانتباه، هو أن الغريب الذي يقبلون لجوءه اليهم ، تحميه الامة باجمعها لـدى أي اذى يصيبه ، والمثـالان الآتيان ، كافيان لاثبات ذلك وسنوردهما على عجل لنبرهن لملك فرنسة عن الاحترام الذي يكنه له شعب نتهمه بالهمجية •

ان الاب « فانتوري » الذي ذهب الى عينطورة ، المكان الذي اتخذه اليسوعيون مركزاً لهم ، اختلف مع رؤسائه بشـأن راهبة كان يرشدها ، ويقال انها قديسة ، تأتي بالمعجزات •

ولسنا ندري لاي سبب منع رؤساء الدين الاب فانتوري من مقابلة الفتاة ، وازمعوا على نفيه الى اوروبة •

رفض الاب اليسوعي الانصياع لاوامر رؤسائه في الابتعاد عن هداية الفتاة ، لانه كان شديد الايمان بصلاحها ، ويرى في تركه اياها عملا مخالفاً لله ، ولتعاليم السماء • وكـان الديـن ، وايمان الاهالي بعجائب الراهبة المزعومة ، يزيدانه اصرارا علـى رأيه •

اغضب هذا الرفض رؤساءه ، فتوجهوا الى قنصل فرنسـة في صيداء يرجون منه دعوة الاب فانتوري اليه والالتماس مـن الامير ان يبعده •

ودون ان يدرك القنصل واجباته نحو الامير ، بعث مترجماً وقواسين وأمرهم بالقاء القبض على الاب فانتوري ، دون اعلام سيد البلـد •

قبض الثلاثة على الاب اليسوعي ، وكبلوه بالقيود ، ثـم اقتادوه الى قرية ساحلية ، نزلوا منها الى البحر ، متوجهين الـى صيدا ، ولكن حظ الاب كـان كبيراً ، اذ هبت عـاصفة ارغمت المركب على الرسو في بيروت •

وهناك ، بعد ان أدرك الاب انه في بلد مستقل ، حر ، ناشد الاهلين أن يأتوا لنجدته ، طالباً حق اللجوء اليهم ، هرباً مما لقيه

على ايدي الرجال الثلاثة من ظلم •

وأسرع الاهلون الى النجدة واصبح من الصعب جداً تهدئة ثورة الشعب ضد المترجم والقواسين ، بانتظار نتيجة المحاكمة التي سيجريها الامير المقيم في بيروت •

وحقق الامير في ملابسات القضية ودرسها ، ثم طلب اخلاء سراح الاب في الحال ، وسجن الرجال الثلاثة ريثما يصدر الحكم عليهم بالموت ، اذا لم يتدارك القنصل تلك الاهانة الصادرة عنه ، ويصلح اخلاله بمعاهدة « حقوق الموطنين » •

قال الامير ملحم : « لو طلب القنصل مني هذا الراهب ، لكنت سلمته اياه ، لانني لا احمي المتمردين والعصاة ، ولكنه ، بعد أن استخف بسلطتي ، واحتقر امارتي ، فقبض على الاب من غير اذني ، فسأحكم بالموت على رسله ليكونوا درساً له وعبرة » •

وعلم القنصل بالحادثة ، فقلق ، وشعر بالخطر الذي زجه فيه غروره ، وخوفاً ان يعرض احترام دولته للتأويل اذا جاء هو بنفسه المفاوضة ، طلب شفاعة باشا دمشق ، الذي استطاع ان يحصل على حكم بالعفو عن الاسرى واطلاق سراحهم ، ولكن الاب اليسوعي بقي في حماية الامير ، حراً ، معززا ، في موطن الدروز الكريم •

وبعد هذه الحادثة بوقت قصير، قتل المتاولة احد الكبوشيين الفرنسيين، في احدى مقاطعات الامير • والمتاولة هم فريقمتوحش من المسلمين ، ويؤمنون بان قتل مسيحي في رمضان عمل محبب ، يرضي الله • (١)

---

١ ـ هذا تلفيق وافتراء على الواقع ، ولا عجب في ان يقول هذا فرنسي يحكم على اساس ما يسمع لا ما يشهد ويختبر . فالمتاولة قوم طيبون يتميزون بجميع الخلال العربية ، ويدرك ذلك كل من يجاورهم او يتعامل معهم ، ويرى مقدار ما يتحلون به من فطرة طيبة •

ولما علم الامير بالخبر ارسل فرقة مؤلفة من خمسين فارساً ، اشعلت النار حسب اوامره ، في كل ممتلكات الشيعة ، دون ان تبقي حتى على السنابل الناضجة التي حان حصادها • وعلاوة على ذلك فقد اقتيد بعضهم ليلقوا موتاً محزناً ، كان عبرة للجميع •

ويوم مصرعهم بالذات ، قال الامير لافراد اسرته وهو الى مائــدة الغداء •

« لم أصدر هذا الحكم فقط، لانهعادل وضروري لاستتباب الامن في وطني ، ولكن لحماية المسيحيين ايضاً ، واحتراماً للملك فرنسة الذي اكن له المحبة والتقدير ، لانه ملك عظيم » •

وتفادياً لوقوع مثل هذه الحوادث ، زود الامير موظفيــه والاجانب الذين يحميهم، بحلقات حفر عليها خاتمه• وتلك الحلقات كانت كجوازات السفر ، تمكنهم من الانتقال الى الجزيرة العربية، أو اي قطر من اقطار الامبراطورية ، دون ان يخافوا اعتداء علــى ارواحهم او يخشوا اغتصاباً لاموالهم •

والامر الذي يستحق التدوين، هو أن هذا الحاكم الذي سن القوانين العادلة ، القاسية ، محافظة على الامن ، استطاع أن يجعل الطمأنينة والرفاهية تغمران أرضه ، وتملآن نفوس موطنيه •

وهذه الحال ، اذا لم يغتر بها الحاكم ، هي اساس لسعادة الشعب وقوة للأمة ••• الامــة التي يكون فيها الملــك ملكاً حقاً بقدر ما يكون أباً لها وراعياً • (١)

وهذه الحال ايضا هي التي تحمل على الانسجــام والتآخــي وتجعل الناس ينسون شقاءهم الطبيعي •

وهي في النهاية ، تدفع الاهلين الى حب الحاكم وتجمعهم

---

١ ــ لم الجا في الترجمة الى المعنى فقط ، مهملا اسلوب الكاتب الفرنســي وكيفية ترابط جمله ، انما اهتميت بتلاحق معانيه وجمله ، جاهدا قدر المستطاع ان لا ابعد عن طريقة هذا الكاتب الذي كتب باسلوب علمي جاف ، بعيدا عن الطلاوة

تحت رايته ، وتقوي فيهم الميل الى احترامه والخضوع له •

ان دولة الدروز القوية من جميع نواحيها ، ولا سيما المراكز الدفاعية الطبيعية ، والقلاع العظيمة ، تجعل الامير لا يرهب الاعداء ، خصوصا حين يعرف كيف يحافظ على الألفة التي غمرت البلاد منذ زمن بعيد ، بين قومه والموارنة والعرب •

لذلك نرى الدروز لا يهتمون بفضول الباب العالي ، ولا بالنيات التي يضمرها لاذلالهم •

إذن ، لم يبق للامير الا ان يعامل موطنيه المعاملة ، اللطيفة ، الحسنة ، التي تخلق الرهبة الناتجة عن الحب والاحترام ، وان يوفر لهم جميع الاسباب التي تضمن لهم العيشة الهانئة ، وان يمنع عنهم الحيف والظلم ، وان يغمرهم بالسعادة ، حتى لا يفكر أحد منهم في تغيير نظام الحكم •

تلك كانت الاعمال التي تمشى عليها الامير ملحم الثاني، وقد عرفه موطنوه أميرا لا يعطي اناسا على حساب آخرين • فكان يعرف مدخول كل فرد وما يملك ، وكانت الضريبة نسبية تجبى باعتدال ، مما دعا الاهلين الى دعوة الجابي اليهم لتحصيلها منهم ، حتى لا يضطر الامير الى الاعتماد على ايد غريبة •

وكان الامير يقيم المحاكمات بنفسه ، بحكمة ، وعدل ، وكياسة، جعلت الناس يعتبرونه حكماووسيطا ،اكثر من ان يكون قاضيا قاسيا ، يمكن ان يشط به الجهل او المحسوبية مرة ،عن الحكم العادل ، الحكيم •

وليس من العجب في شيء ، ان نرى أميراً يحمل على عاتقه اعباء الدولة باسرها ، يدير في الوقت عينه المحاكمات العادلة •

وتلك المحاكمات كان لا يطول امد البت فيها ، اذ ليس في البلد شكليات وتوطئات ومرافعات ، تؤخر اصدار الحكم ، لان

الامير على علم واضح باخـلاق كل فرد مـن شعبه ، وبمسلكه وسيرته ، لذلك لا يصعب عليه اصدار احكام عادلة تقطع الطريق على الاحتجاجات والاعتراضات •

والامير ، لا يجد حرجاً في اثبات ميزان العدل ، الا حـين تكون الخلافات ناجمة عن التجارة ، وهذا نادرا ما يحدث ، لان المعاملات التجارية تجري يدا بيد ، وتدفع المبالغ المالية نقدا ، او بالمبادلة المباشرة •

فاذا حدث شيء من هذا ، يحار القضاء الى أية جهة يميل •.

وفي محكمة الامير ، يدافع الفرد عن قضيته بنفسه ، ويصدر الحكم حالما ينتهي الدفاع •

اذا اعتدي على انسان ، او على ممتلكاته ، دعا خصمه الى المثول أمام الامير ، فاذا رفض ، عرض الشاكي قضيته ، وشـرح شكواه وحده ، وسرعان ما يصدر الامير حكمه في غياب الخصم•

وكثيراً ما يحدث ، ان يلجـأ الموطنون في خـلافاتهم الى اشخاص حياديين ، يختارونهم بانفسهم ، كحاكم المدينة مثـلا ، او أقرب شيخاليهم ، أو احد المقدمين • وهذا الحكم لا يحكم الا بالعدل ، ولا يسيء الى الثقة الموضـوعة في شخصه ، لذلـك يستحيل ان يفصل بين المتخاصمين ، الا بالحق •

اما حكمه ، فنافذ ، ومقبول •

يظهر من ذلك ، ان الدروز لا يهرعون الى الامير ، الا في الحالات المستعصية ، التي تحتاج الى سلطته ، وهيبته •

والعجيب في الامر ، ان الغنـي لا يمكنه ان يقترح علـى خصمه ، اذا كان فقيراً ، حل مشكلته عن طريق المال الذي يدفعه له ، لأنه اذا رفض هذا الاخير وعرف الامير بذلك ، فلا يأملن ذاك الغني بالحصول على حقه •

ان النكث بالعهود والغدر، يلاقيان عند الدروز اشد العقاب،

كما أن القتل والسرقة عقابهما الموت ، دون اي اعتبار ، او مراعاة (١) والواشي ينال عقاباً قاسياً ، ولا يحظى بشيء من الرأفة. أما المذنب ، ايا كان ذنبه ، فليس هناك من قوة تستطيع ان تجنبه القصاص الذي يستحق .

أما الضرائب عند الدروز فثلاثة انواع لا تتبدل :

الاول : يدفع رب العيلة نقداً ، وتقدر بسبع ليرات وعشرة «صول» حسب عملتنا .وهذه الضريبة المخزيةالتي تفرض على شعب يضحي من اجل راحته وثروته كي يتخلص من سيطرة الاجنبي ، هي ضريبة تقدم الى السلطان .

وبحجة تنفيذ أوامر السلطان ، كثيراً ما كان يلح باشا دمشق في جباية الضرائب من الامير ، قبل حلول موعدها .

وحين تتكرر طلباته ، ويزداد الحاحه ، يضطر الامير الى دفع ما عليه للامبراطورية حريراً يكون نصيب الباشا منه ثلث مقداره .

أما الضريبتان الاخريان فهما للامير ، وتفرضان على الاشجار المثمرة وغيرها من المحصولات .

وأكبر قسط من الضريبة يقوم على الحرير ، ولكن ثبات الضرائب وعدم تغييرها ، يجعلان المكلف يعرف تماماً ما عليه تجاه الدولة ، فيزيد من انتاجه .

وعدم تغيير الضريبة يمنح الموطن تشجيعاً وحيوية ، اذ على نشاطه تتوقف ثروته وراحته .

هذا الشعب الذي يتعاطى الزراعة داخل ارضه ، محتقرا مهنة التجارة ، قانع بالقليل ، يملك بلداً غنياً بالمواد الاولية ، وهو أنشط شعوب العالم ، وأحسنها اقتصاداً .

كل فرد في هذا البلد ، يقوم بصناعته الخاصة . والشرف

---

١ ــ يستساغ القتل عند الدروز اذا كان دفاعا عن عرض او محافظة على كرامة .

ليس في المهنة ، وانما يقوم على الفرد ، فمن بيده المحراث يفلح به الارض ، لا يقل احترامه عن احترام حامل السلاح في الميدان ٠

واعتماداً على تلك المبادىء ، نرى الشعب يهدف الى الصيانة العامة ، داعماً قوة الدولة وهيبتها ، خالقاً مجتمعاً صالحاً ، غنياً ، مبعداً عنه البطالة التي تفسد الاخلاق ، وتولد العيوب ٠

كما أن التعصب في الرأي ، لا ينتج عنه اي نوع من الشغب أو الفتنة ، وانما كل ما في البلاد يدعو الى الألفة ، وينشر حلاوة السلم ٠

ليس حاكم الدروز مستبداً وظالماً ، كما يزعم بعضهم ، وليست حكومته دكتاتورية كما يزعم آخرون ، وهو اذا مارس سلطة مستبدة بعض الاحايين ، وان كانت ارادته تتخذ شكل القانون بعض المرات ، فان ذلك لا يحدث الا في احوال قاهرة ، نادرة ٠

وهذه السلطة المستبدة ، اذا اتفق ان ظهرت ، فلا تكون على حساب حرية الموطنين وحياتهم ، ولا على حساب حرية اللاجئين وحياتهم ايضاً ٠

ان سياسة الامير ملحم ، كانت تقوم على ارضاء شعبه وحلفائه ، وتخويف الاتراك وارهابهم ٠

انه لنموذج جميل لدولة صالحة ، يلجأ أميرها في سياسته الى تفضيل المحبة على الارهاب ، اذ على هذا المبدأ تتوقف قوته ، اما غير ذلك ، فيجعل الحاكم طاغية أكثر مما هو ملك ، ويحول سلطته الى تهلكة رهيبة ، فاجعة ٠

ان محبة الامير لشعبه ، واحترامه أياه ، هما الدليل الواضح على حكمته ، وعظمته ٠

علينا اذاً ان نبحث عن هذا الدليل لندرك اذا كان الحاكم يحكم بالعدل ويتبوأ مركزه عن جدارة ٠

وهذا الدليل يحمل الحقيقة أكثر مما تحمله ممالأة حاشية البلاط ومعاملتهم باللين ، وتحمل تفاهاتهم ، وتعاليهم ، وصلفهم •

ان الملك الحكيم ، المستنير ، لا يخفى عليه الخطأ ، وهو يدرك ان ما تخطه يداه ، ينقش في قلوب رعاياه ، خطوطاً اعمق من الخطوط المحفورة في النحاس •

وتلك الخطوط اذا كانت عاطلة ، تترك في ابناء الاجيال المقبلة آثاراً مخجلة ، يجدون أن من الكرامة دفنها في نسيان أبدي ، وهي تذكر الآتين كذلك بان آباءهم كانوا ماهرين في خداع الملوك (١) •

تجارة الدروز

لاحظنا مما سبق ، تفوق منتجات الوطن الدرزي ، على البلاد المجاورة له ، كالهند وبلاد فارس مثلا • فيمكننا اذاً أن ندرك من ذلك الفائدة الكبيرة التي يجنيها المتعاملون مع الدروز تجارياً •

والذي يزيد في أهمية التجارة مع الدروز ، هو أنها تقوم على المبادلة بالمواد الاولية التي اذا قدر لها ان تدخل مصانعنا وفرت السعة والثروة •

ولكي نعطي فكرة واضحة ، علينا ان نتعرف الى تجارة الدروز منذ نشأتها الى ايام حكم الامير ملحم الثاني •

وبعرضنا حال تجارتهم الحاضرة ، يمكننا ان ندرك العيوب التي رافقتها ، ومن ثم سننتقل الى الاصدار والاستيراد ، وبعد

---

١ ــ ان ما جاء في هذه الاسطر يدلنا دلالة واضحة على ان المؤلف كان يلجأ الى التلميح لاصلاح ملك فرنسة الذي كانت النقمة عليه قد صعدت من الصدور الى اطراف الشفاه ، لان الكتاب صدر قبل الثورة الفرنسية التي نشبت سنة ١٧٨٩ •

ذلك سنورد الفوائد التي يجنيها الاجانب من التجارة المباشرة مع الدروز •

تجارة الدروز منذ نشاتها الى عهد الامير ملحم الثاني

ما كاد الامير فخر الدين يفتتح القلاع، ويستولي على مرفأي بيروت وصيداء، حتى هيأ للاجانب جميع الاسباب الكفيلة بجذبهم اليهما •

وسرعان ما غص المرفآن باليونان ، واليهود ، والمغاربة الذين لحق بهم بعد وقت قصير ، ابناء فلورنسا ، والبندقية •

ان الارباح الطائلة التي جنتها تلك الشعوب من التجارة الدرزية الناشئة ، حملت اهل مرسيليا على المجيء الى لبنان أيضا ليقاسموا تلك الشعوب بعض الارباح الطائلة •

والامم الثلاث ، نعمت بالتجارة الدرزية وحدها لمدة سنوات عديدة •

ولكن ما كادت اخبار الارباح تصل الى الانكليز حتى هرعوا الى منبع تلك الثروة ، يزاحمون ، بنشاط ، ابناء الامم الاخرى •

ومنذ ذلك الحين، أخذ ابناء البندقية ، وفلورنسا، ومرسيليا والانكليز ، يتسابقون الى انشاء مؤسسات في بلد فخرالدين •

وتقدر الارباح التي كانوا يجنونها من التجارة ، بحوالي مئة وخمسين للمئة ، والذي يدعونا الى تصديق ذلك ، ان الدروز الذين الفوا منتجاتهم ، كانوا يجهلون أثمانها ، والفائدة التي يحصلها الاجانب منها •

ولكن جشع التجار الآنفي الذكر أظهر الدروز في الحقيقة ، على قيمة ما عندهم ، ولكنهم في الغالب كانوا لا يقدرون قيمة المنتجات الوافرة التي كانوا يجنونها ، فيغتنمون الفرصة لكي

يتخلصوا منها ، ظانين ان غيرهم لا يجني منها الا فائدة بسيطة ، وهكذا لم يدرك الدروز خطأ مفهومهم الا بعد خبرة طويلة •

كان الدروز، يتلقون بشغف كل ما يحمله اليهم الاوروبيون، واثقين بصورة عمياء، بكل الاسعار التي يفرضونها على منتجاتهم•

في احوال مماثلة ، وحين يستطيع الانسان أن ينأى بضميره عن المبادىء المستقيمة ، تتم الصفقات الكبيرة ، وتقوم الثروة على حساب سذاجة الاخرين •

وهذا ، من غير شك ، ما أراد ان يبرزه « بلاتون » حين قال :

« ليست التجارة سوى وسيلة شريفة ، لامتلاك ما للآخرين ، دون ان يؤدي الامتلاك الى عواقب وخيمة » •

وهل الصفقات التي حصل عليها الناس ، من سواحل افريقية، سوى جرائم ، على الشرف أن يدفنها في عالم النسيان ؟

ما أبشعها صفقات ، قامت على الغش الفاضح ، مستغلة الجهل الكبير في السود ! •••

اذا كان حقا ان قانون الطبيعة ، يفرض المساواة في الاعمال المتبادلة بين الناس ، فأي خزي يلحق بالاخلاق بسبب تلك الجرائم؟

ان اليهود ، واليونانيين ، والمغاربة ، ما كادوا يشعرون بأن الاوروبيين يضعفون تجارتهم ، حتى جمعوا مجهودهم لايقاظ الدروز ، وافهامهم سر التجارة ، ولكن مزاعمهم ذهبت باطلا ، وانقلبت محاولاتهم الى غير ما كانوا يأملون ، لان الدروز شكوا بنصائحهم وآرائهم ، وازدادوا ثقة بالاوروبيين •

والاوروبيون، افهموا من ناحيتهم الدروز السريعي التصديق، جشع تلك الشعوب الحاسدة ، ورثاءهم ، متابعين تجارتهم بالمبادلة، يداً بيد ، يعطون منتجات حقيرة القيمة ، مقابل مواد أولية ثمينة •

وفي هذا التزاحم التجاري ، نعم التجار الفرنسيون ، بحظوة بالغة عند الدروز ، الذين كانوا يفضلون المتاجـرة معهم ، علـى المتاجرة مع غيرهم •

وكانت التجارة أكثر ما تقوم على المبادلة بالجوخ • وكـان جوخنا أفضل الاجواخ ملائمة • وكانت اقساط الديون تدفع لنا بصورة أسرع كثيراً مما تدفع ديون منافسينا ، مع العلم انه كان على اولئك المنافسين اما ان يأخذوا هذا النوع من البضاعة منا ، واما ان يلجأوا الى المبادلة ببضائع أخرى •

ولكن بضائعهم تلك لم تكن تكفي لعملية المقايضة ، ولذلك كان التجار غير الفرنسيين ، مضطرين الى دفع فلوس فـوق مـا يحملون من بضاعـة •

وكان من واجبنا نحن ، ازاء ذلك ، ان نحتفظ بهذه الميزة ، وتلك الحظوة ، ولكن الجشع وعدم الصبر اللذين اظهرهما ابناء وطننا ـ اذ كانوا يريدون ان تؤدي التجارة وبسرعة الى جمـع الثروات الطائلة ـ كانا العاملين اللذين جعلا الانكليز يسلبوننا تلك النعمة التي كنا نتمتع بها •

هذا ما أراده « ديفلاند » حين قال :

« تلاشت معامل « لانكدوك » وسلب الانكليز منا أكثـر اسواق الشرق • وكانت تلك المعامل تمون الشرق بالجوخ المصبوغ بجميع الالـوان •

كان الرواج سريعاً ، والربح مضموناً ، مما جعلنا نعمل بأقل ما يكون من العناية • وكنا لجهلنا، لا نشك في أن الاتراك والعرب الذين الفوا الاقمشة الفرنسية ، لا يتوقفون عن متابعة استعمالها ، وأنهم لا يتمتعون بالفهم الكافي للتفريق بين أصناف الاجواخ التي

تقدم اليهم • وبعد الفتور الذي اصاب تجارتنا ، نشأت المعاملة السيئة ، وتلا المعاملة السيئة ، الغش والخداع اللذين لجأ اليهما تجارنا، الى درجة أن الانكليز استطاعوا ان يسلبونا منافع التجارة، لانهم كانوا يتحلون بالكياسة والامانة والصدق » (١) •

على هذه الحال ، كانت تجارة الدروز ، حين ألمت بفخرالدين الكارثة التي ابعدته عن وطنه •

وبعد ذلك اصبحت البلاد فريسة لجيش الاتراك الذي راح يعكر صفوها ، محدثاً الخراب أينما حل • وافتقرت المزارع الى العناية ، وكادت تخلو المدن الا من الاتراك الفاتحين •

أما مرفأا بيروت وصيداء اللذان كانا في الماضي يغصان بالبواخر الاجنبية ، فقد باتا بعد ذهاب ذلك الامير ، ملجأ لبعض الفئات الغبية التي لا تعرف الفن ولا التجارة •

وعلى الرغم من انتقال الحكم الى الورثة الشرعيين ، فان البلاد لم تكن احسن حالا مما كانت في زمن الاتراك ، لان سوء حكم الامراء ، دفع الشعب الى قطع الطرق والسلب كي يوفر اسباب العيش •

أما اخصاء فخرالدين ، فقد لجأوا الى حكومات الباشوات في صيدا ودمشق ، وعكفوا على زراعة الارض التي استعادت بنشاطهم خصبها ووفرة غلالها •

وبقيت مدينتا بيروت وصيداء ، في موت تجاري ، الى ان جاء ملحم الثاني الذي أعاد التجارة الى حالها السابقة •

---

١ ــ حبذا لو بعث مؤلف هذا الكتاب حيا من جديد كي يدرك أن شهادته بصدق الانكليز لا تنطبق على واقعهم الاستعماري •

المعايب الناجمة عن الطريقة المتبعة في التجارة الدرزية

تألم ملحم الثاني كثيراً ، بعد أن تسلم الحكم ، بسبب ما وصلت اليه حال الدولة الدرزية .

لقد كان ممتلىء النفس بالعظمة التي تخلق الملوك العظام ، فتخلى عن القواعد التي سار عليها سابقوه ، متقدماً بخطى حثيثة ، لاتخاذ قواعد جديدة . فعرف كيف يخنق في قلوب موطنيه ، روح الهمجية التي كانت قد غمرت جسم الامة .

كان الامير ملحم قدوة في الأخلاق الحسنة ، فاصلح العادات المتوحشة ، (١) وقوم المبادىء المعوجة التي اتسم بها الامراء السابقون، في نفوس الشعب . وكان ذلك عن طريق القوانين التي اتخذت العدالة ، واللطف ، والحزم ، اساساً لها .

وكان لتلك البداية المحمودة أثر طيب في نفوس الاعراب والموارنة ، فهرعوا جميعا لاقامة الصداقات وعقد المحالفات مع الامير ملحم ، وخصوصا الموارنة المدعوون ، قبل غيرهم ، الى التحالف مع الدروز واكتساب صداقتهم .

واستعادت البلاد سلمها ، ومحبتها ، والفتها . وعادت الحماسة تسيطر على جميع الاعمال ، فاستتبت الوحدة العامة ، واصبحت المواصلات حرة ، وعاد ابناء الشعب ، من جديد ، يبدون العناية الشديدة بالارض ، آتين بانواع من الاغراس جديدة لم تكن متوافرة من قبل .

---

٢ ـ ترى هل تنطبق نعوت الهمجية والتوحش وما شابههما ، حتى في تلك الايام على اللبنانيين اكثر ام على افرنج القرن العشرين الذين باعوا الدين والمبادىء المثلى بفلس الصهاينة الملوث .

وكان الجميع لا يفكرون الا في التملك ، بالطرق الشرعية ، وفي التمتع بالخيرات دون تأنيب الضمير •

في البداية ، كان دخل الفرد لا يزيـد على معيشته الخاصة ، وكفايته ، ولكن جودة المناخ ، وخصب الارض كانتا كافيتين لان يجعلا الدروز في فترة قصيرة ، يتنعمون بتجارة واسعة مما يفيض عنهم من الغلال •

ان الثمار الاولـى ، كـان يتقاسمها المصريـون ، ولكـن المسيحيين ، بعد رجوعهم تحت حماية الامير ، عادوا الى المقاطعات فأخصبوها ، وجعلوا الخيرات تتدفق منها ، حتى المناطق القاحلـة التي حرمتها الطبيعة الخصب جعلوا تربتها تجود بالخير والعطاء •

ولو كان الاوروبيون يذكرون الفوائد التي كانوا يجنونها في الماضي من منتجات الدروز ، لجربوا اليوم أن يعودوا الـى الاتجار معهـم •

ومما لا شك فيه ، ان الاوروبيين ، بعد أن علموا بقيـام حكومة جديدة للشعب الدرزي ، رجوا من الباب العالي السماح لهم بانشاء قنصليات ، ومؤسسات •

وتلك ، طبعا ، ثمرة حكمة امير مستنير ، واع •

ان الحكام الحقيقيين ، هـم الذين يملكون القـدرة — في مملكتهم كلها ولمصلحة كل فرد مـن افرادها — على أن يهبـوا شعوبهم ما تهبه الشمس للعالم بأسره •

بهذه السياسة ، يكون الملوك حكاما جديرين بهذا الاسم ، اذ يضعون امام اعيننا صورة للاله • وبكلمة اخرى ، يكونـون

عظاما بقدر ما يقومون باعمال يفرضها عليهم واجبهم وشرفهم ٠

وما كان مجهود السلطات الاوروبية يسفر عن عقد معاهدات تجارية مع السلطان ، حتى اخذ تجارها يبحرون الى فلسطين ، لا ليعبروا منها الى وطن الدروز ، الذين كان دخول ارضهم محرما على الاجانب ، لان السلطان كان قد احتفظ بملكية المرافىء ، تاركا للامير ، عوضا عنها ، مناطق اخرى ٠ لذلك كانت التجارة لا تتم الا عن طريق العملاء ، وهي الان ما تزال تجري بهذه الطريقة على الرغم من استعادة الامير ملحم لسيادته على بيروت ٠

واذا شاء تاجر اجنبي أن يدخل بضائعه الى بلاد الدروز ، ليستبدل بها مواد اولية يعبىء بها مركبه ، كان عليه ان يكلف تركيا أو يهوديا ، او يونانيا مقيما في صيدا ، حيث تتم عمليات الشحن وانزال البضاعة ٠

وذلك العميل ، يعطي التاجر قائمة بمقدار البضاعةالتي يريد بيعها بعد أن يكونا قد اتفقا على رسوم السمسرة ، ويدفع له في مقابلة ذلك المبلغ الذي يراه ضروريا ٠

والعميل كذلك ، تأكيدا لامانته ، يعطيه وصولا بقيمة البضائع التي تسلمها ، كرهن على ما اوكل اليه بيعه ، ثم ينصرف الى القيام بمهمته ٠

ومن انعام النظر فى هذا النوع من التجارة ، فدرك الصعوبات والاخطار التي يتعرض لها التجار ٠ واليك أيضاحها ٠

لم يكن الدروز يتعاطون الكتابة في عمليات البيع والشراء ، لذلك كان لزاما عليهم الاعتماد على الوكلاء في أمور السندات ٠ والذي يزيد في شدة الضرورة الى العملاء ، هو ان الدروز لا

يمكن اقناعهم ، باية وسيلة كانت، بأن في الناس من يغش ويخدع، وهم الذين ليسوا على علاقة بمن يقابلون الثقة بالخيانة النكراء .

ونحن لا تقول ، ان وجود عملاء مستقيمين أمر مستحيل ، ولكن مما لا شك فيه ، أن اولئك العملاء ، ان لم يغشوا في القوائم والبيانات فهم لا يتورعون أبدا عن أن يربحوا ست ليرات، حسب عملتنا ، عن كل ليبرة من الحرير .

تلك قاعدة عامة ، يمارسها حتى الباشا نفسه ، وقد جعلتها العادة والتكرار ، في عرفهم ، شرعية لا غبار عليها .

وانه لمن الحكمة عدم الاسترسال بالثقة الى الباشا ، فرذائل المشترعين هي دوما فضائل في نظر الجماعة ، وهل يرجى خير من الحاكم الذي تسيره المنفعة ، فيؤمل منه الابتعاد عن تلك الفضائل المزعومة ؟ يستنتج من ذلك ، ان الاتراك المسلمين حتى المعتدلين منهم ، وان كانوا يقلون غشا عن بني قومهم ، فانهم على كل حال، يغشون في استمرار .

ويتبادر الى الذهن ، ان اللجوء الى تركي يدفع الثمن سلفا، أمر يخلص التجار من ذلك المرض ، وهو ممكن ، لان بين الاتراك كثيرا من الاغنياء .

ولكن في ذلك أيضا ما يخيف ، فالتركي في مثل هذه الحال، يقوم بالتجارة على حسابه الخاص ، اي أنه يتحمل خطر الخسارة، فيفرض الثمن على هواه ، او يتعلل بالديون التي يفترض دفع فوائدها ، وقد يستدين فعلا من اليهود الذين لا يقرضون مالا الا بفائدة قدرها اربعون للمئة عن كل ثلاثة أشهر .

كل هذه الاحمال تقع على عاتق الاجنبي ، الذي لا يمكن والحالة هذه ، الا أن يؤثر فحش الفوائد في تجارته .

أن اليهود واليونانيين ، الذين يجترحون هذه الجريمة، ليس لهم أي مورد للرزق غير الربا، يتخذون منه تعويضا عن الاعتداءات التي تصيبهم من الباشوات . لذلك كان من الافضل ان يتخذوا عملاء ، بدلا من الاتراك .

في مثل هذه الحالات البشعة ، لا ينتظر الا الزيادة في الدفع، وتجمل الفوائد ، والبيع باسعار فاحشة .

وهناك ايضا ما هو ابشع من ذلك ، اذ ما اكثر ان يتوارى الاتراك واليونانيون عن الانظار ، بعد أن يزوروا سندات يقدمونها الى التجار ، تأمينا على البضاعة التي يتسلمونها .

وفي مثل هذه الاحوال ، ليس سلوك الطريق الى محكمة الباشا بالأمر العسير ، ولكن عدالة الاحكام ليست دائما مضمونة، لان للعدالة هناك ثمنا غاليا ، فعلى الشاكي ان يبذر المال دون حساب ، لذلك كان من الافضل أن يلجأ الى التراضي بدلا من اقامة الدعوى على العميل الخائن ، لان هذا الاخير لا بد ان يكسب قضيته لكثرة ما له من اصدقاء ، ولفرط ما يبذر من أموال .

المدى الذي يمكن ان تبلغـــــــــه تجــــارة الـــــدروز

ان الاضرار التي نشأت عن حاجة التجار الى وساطة العملاء المشبوهين ، هي في الحقيقة السبب الذي منع تجارنا من الاهتمام بالتجارة بقدر ما كان يجب . ومن التوسع الذي كان عليهم ان يحققوه في وقت قصير ، لو ان التعامل التجاري مع الدروز يجري مباشرة ، وبسهولة ، كما كانت الحال أيام فخرالدين .

ان تلك التجارة تقتصر اليوم على الحرير الذي يأخذ المصريون منه اجوده لانهم اول من يعمدون الى الاختيار، اما الباقي فتأخذه شركات مقيمة في بيروت ، وقد تحصل على الموسم كله اذا ادت الى الامير بعض الخدمـــات .

اما عملاؤنا فيشترون الحرير ، غالبا ، من هذه الشركات ، وهذا يعني بالطبع ، ارتفاعا في الاسعار يتحمله تجارنا ، وربحـــا مضاعفا يحصل عليه العملاء .

كل هذا يؤثر في معاملنا وعملتنا ، وتجارتنا بنـــوع عام ، ويسبب لنا اضراراً شديدا .

ويستخرج كذلك من بلاد الدروز ، القطن والرماد ، وتجارة هذين الصنفين يؤمل لها تقدم كبير ، وجني فائدة عظيمة .

لندخل في التفاصيل ، كي ندرك كيف يمكننا ان نجعل من تجارة الدروز ، فروعا عدة لتجارتنا .

يؤلف الحرير الفرع الاول ، لان موسمه اكبر موسم فـــي بلاد الدروز ، وجودته التي تفوق جـــودة حرير الهند والعجـــم وجميع مقاطعات الشرق ، جعلت المصريين يتسابقون اليه برغبـــة وشوق ، لانهم الوحيدون الذين يعرفون صناعته ، ويجيدون فن

غزلـه .

ويقدر ما ينتج منه ، بـ ٧٠٠ ألف ليبرة في العام في حـال اقبال الموسم ، ومن ٥٠٠ الى ٦٠٠ ألف في الموسم العادي .

يقطف الحرير في شهر أيار ، ويباع في شهر أيلول . وفـي الفترة التي تفصل بين هذين الشهرين ، يلجأ الملاكون الى جنـي القطن ، وغزله ، واعـداده على الشكل الذي يريده الصـانع ، حتى اذا حل شهر أيلول اذاع الامير ، بيانا يعين فيه سعر الحـرير المتناسب مع اقبال الموسم او عدمه .

ويحق للمالك ان يبيع بسعر يفوق السعر الذي اعلنه الامير ، اذا وجد وسيلة الى ذلك ، ولكن يحظر عليه ان يبيع دون السعر المحدد ، وهو يملك الحرية ايضا في الاحتفاظ بموسمه اذا شاء ، اذ ليس هناك ما يرغمه على بيع غلته، لان ارادته تقوم مقام القانون من هذه الناحية ، فارادة الامير اذاً ، عاقلة ، حكيمة ، وهي مبنية على اساس منفعة الموطنين باجمعهم ، وتلك الارادة التي لا تمس حرية الفرد ، هي الوسيلة التي تحقق جشع الشارين وتقضي على حيلهم ، اولئك الشارين الذين يحاولون ، بكل ما أوتوا من دهاء ، غش الشعب الذي يجهل أمور التجارة .

والقطن لا يقل منفعة عن الحرير ، ولا يقتصر استخدامه على صناعـة الفتائـل .

واذا كان الدروز ، وهم ليسوا على براعة في الصناعـات ، يغزلون القطن لينسجوا منه اقمشة صالحة لاشرعة البواخر ، فاننا دون شك ، نستطيع ان نطور هذه الصناعة فنجعلها تلائم اذواقهم، وتتفق مع طرق استعمالها عندهم ، لنعود بعد ذلك فنبيعهم مـا أخذنا منهم .

ومما لا ريب فيه أن قطن الدروز أقل جودة من القطن الاميركي ، ولكن كما قال احد الكتاب :

« ليس نوع المادة هو الذي يفرض السعر ، وانما ملاءمته للاستعمال » .

اما العسل والشمع فهما الفرع الثالث الذي لا يقل أهمية عن الفرعين الاولين (١) ، حتى ان الشمع منذ انتشار الترف عندنا، أصبح كثير الاستعمال في اوروبا ، وهو على قلة في البلاد التي يظن الجباة فيها انهم يخدمون الحكومة باحتكار القفران .

واذا كنا لا نأخذ من خمور بلادهم المقادير الكبيرة التي يمكننا الحصول عليها ، فلاننا نجهل في أوروبة ، ميزات تلك الخمور ، وجودتها ، ولذتها . وصعوبة نقلها هي التي تمنع تجارنا من تحمل اعباء شحنها .

ولكن مهما كانت تكاليف النقل ، فمن الممكن جدا ان تتعود البيوتات المترفة تذوق هذه الخمور . والدليل على ذلك ، أن الاغنياء من العامة ، لا يتوانون في التمون منها .

ويكتفى اليوم باستيراد بعض نتاج العنب من دمشق ، مع تجاهل السبب الذي يؤدي الى تطور الخمور ، وانتشارها .

أما القمح ، فالاتجار به مفيد ، لان وفرة الغلال منه في منطقة ما ، يقابلها قحط في منطقة أخرى ، فاذا حل القحط مثلا في المنطقة الجنوبية من فرنسة، ألا تكون سهول لبنان مثلا الوسيلة المضمونة لتأمين ما تحتاجه تلك المنطقة من القمح ؟

وكذلك الحال في تجارة الاثمار ، فهذا النوع من التجارة ليس مجهولا منا ، فلو اعتبرنا افتقار أكثر جهات اوروبة الى

---

(١) الحرير والقطن .

الاثمار ، والمحصول الوافر الذي تنتجه جبال لبنان وسهله منها ، لادركنا الميزة التي تتمتع بها أثمار لبنان ، وتفضل بها ثمارنا .

أما المن فهو من الاشياء المستخدمة في الطب، ويستعمل في كل مرض ومن الممكن جعله مادة مهمة ، تمون الدول المجاورة (١)

وملح البارود ، وان كان يوجد في بلدان كثيرة ، الا ان هناك أوطانا تفتقر اليه ، وتضطر الى استيراده من أماكن بعيدة ، وبأسعار فاحشـــة .

ولكي ندرك اهميته للدولة التي تملكه ــ ســواء أكانت تستخرجه من ارضها أو تجلبه من مكان آخر ــ يكفينا ان نعرض خصائصه ، وتنوع نواحي استعماله .

وكل ما يحقق الكسب ، ويدعو اليه ، هو هدف التاجــر . فمضاعفة الربح هو مقياس التجارة .

أما الرماد الذي تكلمنا عنه من قبل ، فهو جــدير بالنظر ، ويبدو ان وجوده يقتصر على بلاد الدروز ، فاهل البندقية يسعون اليه باهتمام ، ليستثمروه في معاملهم ، محققين منه منافع جمة .

ويمكننا من ذلك الاستنتاج ان فرنسة ، اذا اعتنت به ، وعرفت كيف تستخدمه ، حققت ثروات جديدة ، ضرورية .

ويمكننا ايضا الاستفادة من خيولهم التي لا تجاريها خيولنا في الخفة والضمور .ونحن نفتقر كذلك الى جلود الدببة والنمور، فجلد النمر لا يساوي عند الدروز أكثر من اثنتي عشرة ليرة حسب عملتنا ، وهذه التجارة متعلقة باعمالنا ، ونستخدمها نحن ، كمـــا يستخدمها كثير من الشعوب التي تستطيع أن تؤمن حاجاتها مـــن

لم يكن لبنان ، كما نعلم مشهورا بانتاج المن ، الذي اشتهر بـــه العراق فقط مـــن البـــلاد العربيـــة .

تلك الجلــود . (١) .

ان هذه المواضيع المتعذدة ، تؤلف أمرا مهما خليقا بالاهتمام الذي يجب ان يتضاعف يوما فيوما ، لان تلك التجارة تؤمن لنــا التجارة مع بلاد فارس ايضا .

لحظنا من قبل أن أمير الدروز هو حامي الموارنة والمسلمين على السواء وان حامل حلقته يمكنه الانتقال في أرضهما بكل أمان وســلامة .

ويجدر بنا هنا أن نضيف : ان بلاد فارس المتاخمة للجزيرة العربية والتي تربطها بها وحدة واتصالات ، يسهل علينا الدخول اليها وتأسيس تجارة فيها ، وجعل الفرس يفضلوننا على المصريين في بيع المحــاصيل .

ومن الافضل للفرس أن يتعاملوا معنا ، بدل أن ينزلــوا بضائعهم الى « هرمز » (٢) نعم من الافيد لهم ان يأخذوا مــن الدروز أو الاوروبيين ما يحتاجونه من الاشياء التي لا يحصلون عليها الا بواسطة اليهود ، أو اليونانيين أو الاتراك الذين ينقلون اليهم تلك الحاجات من مرفأ صيدا .

اما الجزيرة العربية ، فصحيح أنها تعطي قليلا ، وأن شعوبها

لم تبق غابات لبنان ، كما كانت ، مأوى للنمور والدببة وغيرها مع انهــا كانت تعج بانواع الحيوانات ، لدرجة ان الناس كانوا يتحاشون التوغل في الاحراج . ولكن الوحوش اخذت تقل منذ كثر السلاح الحديث بين ايدي السكان واتسعت شبكة المواصلات فاشتدت الحركة وعم العمران حتى في المناطق الحرجية ، وكثر استعمال وســائل النقل الحديثة .

هرمز ، مدينة ذات مرفا في ايران ، موقعها عند مدخل الخليج العربي ، كانت ترسو فيها المراكب المسافرة من آسية الغربية الى الهند . وهي تؤلــف مضيقــا يسمــى « مضيـــق هــرمز »

قليلة الحاجات ، ولكن الجزء الذي يقطنه الموارنة من سورية ، غير متناهي الانتــاج •

منــافع التجــارة المباشرة مع الـــــدروز

منافع التجارة لا تقاس بالارباح التي يحصــل عليها بعض الافراد ، وانما ينظر اليها من حيث نفعها للدولة ، وبالنسبة الــى الثروات التي توفرها للبلاد ، والى القوة التي تمنحها للحكومة •

هــذه هي الاسس التــي يجب ان تعتمد في التجــارة • ان التمون ، بمقادير كبيرة من المواد الاولية ، هو من اهم ما يجب أن توجه اليه العناية ، فمن هنا تنبع الثروات الضخمة ، وتزدهــر الفنون ، وتحقق المعامل تقدمها وغناها •

والاشغال التي توفرها هذه المواد للشعب ، هي عامل قوي في تقدم الصناعة ولذلك تثير المنافسة وتزيدها حدة ، حتى اذا بدأ الرواج ــ وهذا ما يحدث دائما حيث تفيض المواد الاوليــة وينشط الاهلون ــ تحركت على أثره كل الفئات والاجزاء لتبادل الحركة ، وقوي التشجيع لاصابة نجح مماثل بحيث يكون كنقطة الدائــرة •

وقد أصاب أحد الكتاب المحدثين في قوله : « ان المعامل غذاء العملة » • وبالاستطاعة القول ان مكاسب الزراعة تزداد كلما كانت اعمال المعامل ضخمة وثابتة •

ومقاصد الناس تسيرها الرغبة الطبيعية في الحصول على العيشة الهنية ، ولذلك فالمنافسة تنشط في كل مكان تتوافر فيه !الارباح والفوائــد ، والحاجــات تتسع وتفيض ، كلما تضخمت الارباح ، مهيئة السعة ، مؤمنة العمل الثابت المنتج •

وهكذا ، يزداد الاستهلاك ، وترتفع اسعار السلع ولكن بتوازن منسق ، ممتاز .

فمقدار المواد الاولية ، ليست اذا مضرة للدولة ، كما يشاء بعضهم، في بعض الاحايين ، ان يصوروه ، بل على العكس تماما . فالاجانب يهرعون الى بلد ما ، متسابقين الى العمل فيه ، بقدر ما تستطيع الدولة أن توفر العمل ولاكبر عدد من الاشخاص . وفي هذه الحال ، يتدافع اليها العملة الاجانب ، منضوين تحت لوائها لانهم يجدون فيها معيشتهم ، وثقتهم بتحقيق ثروة مضمونة .

في مثل هذا الجو الملائم تسير الفنون نحو الكمال .

وهل هذا التطور ، هو للدولة غير منبع ثروة طائلة ، ثابتة ؟

والمال الخارجي ، لا تحصل عليه الا الدول التي تعرف كيف تستولي على المواد الاولية في البلاد المجاورة وهي ، لا يسعها الا التسابق للحصول على تلك المواد من اجل تموين ، معاملها ، أو ، على الاقل ، لاتخاذها متمما لما تملك هي في أرضيها .

لنتأمل هذه القضية من الوجهة السياسية ، ولنسمح لانفسنا بالسؤال عن السبب الذي يولد تذمر الشعب وشكواه وانشقاقه وتمرده ، ولتكن اجابتنا صادقة ، صريحة ، متخذة ما تصوره لنا الحوادث المختلفة من خطوط وعبر ، قاعدة أساسية وعندئذ نتفق جميعنا على الاجابة ، بان لا شيء يوسع شقة الشقاق كالبطالة ، والعجز عن تأمين حاجات الموطنين .

فاذا قضينا على البطالة ، ووفرنا للموطنين اعمالا تتفق وميولهم، مسهلين لهم القيام بها، موزعين المكافآت حسب الاجتهاد سادت عندئذ الاخلاق الرضية بفضل السعة ، وقام شعب مفيد ، مخلص ، لان ما يضمره الشعب لدولته من الاخلاص يتوقف على

ما يتمتع به من الراحة والرفاهية •

بهذا ، يجد المواطنون انفسهم موجهين بحكمة وحسن ادارة، فيتم اتحادهم وتعاونهم •

وبهذا الاتحاد وحده ، تقوم الدولة على اقوى الركائز وامتنها ، وتكون أمنع وأرهب جانبا ، مما لو كانت تملك عددا ضخما من الفيالق المجهزة •

والشعب لا يكون ، الا كما نريد له ان يكون ، فلنفتح له باب العمل كي يمشي طائعا لتحقيق الرغبة التي نريدها ، وبذلك تقوى فيه المشاعر الوطنية ، وترسخ النزعة القومية في نفسه •

فلندرس ، بناء على هذه النظريات ، حاضر تجارة الدروز التي وان كانت اليوم محدودة ، فانها ما زالت تفتح لنا مجالا للربح، وتحصيل الثروة ولنبن درسنا على الاراء التالية ولنعطها اهتمامنا وانتباهنا •

كانت تجارة الدروز، أيام فخرالدين، تقوم كليا على التبادل، وكان الدروز لسنوات خلت ، يتبنون تلقائيا الذوق الاوروبي ، اذ لم يكن عندهم معامل ، وان كانوا على المام قليل بالفنون ، ولذلك فهم بحاجة الى معونتنا الصناعية •

يستنتج من ذلك ، أن علينا ان نضاعف ايفاد البعثات ، ونجعلها لا تقتصر على الاجواخ التي لم تبق البضاعة الوحيدة التي تلائمهم ، وان نجعل المبادلة على مستوى غلالهم ، اذا كنا حقا نريد ان نحصل على كل ما يفيض عنهم •

ان أكبر عقبة في طريق تطور هذه التجارة هي ، بلا شك ، الحاجة الى استخدام العملاء ، وهذا هو السبب الذي يفرض علينا ان نحمل اليهم المال •

ولكن هذه القضية ليست من الصعوبة بحيث لا تترك مجالا للتغلب عليها ، فالانكليز الذين تمكنوا من نيل الحظوة عند الدروز على حسابنا ، توصلوا الى تذليل الصعوبات على مراحل ، فأدخلوا الى دمشق وكيلا عن أمتهم ، وعرفوا كيف يكسبون فوائد لا نهاية لها ، لم يستطع غيرهم من الاوروبيين ان يحققها .

ويمكننا أن نقوم بخطوة أفضل من خطوتهم ، لانهم مرغمون على ان يتعلقوا بالباشا ، اذا شاؤوا استمرار بقاء وكيلهم في دمشق، والباشا ، من هذه الناحية ، يستحيل عليه أن يغمض عينيه عن أية شاردة أو واردة ، لان عوامل كثيرة تجعله متيقظا لا يغمض له جفن .

أما الفرنسيون فعكس ذلك ، لهم وكيل في بيروت ، ويسمح لهم بأن يبقوه فيها دون ان يكون للباب العالي ، ولا لاية قوة ، أن تعترض على ذلك ، ولو بطريقة غير مباشرة .

وهذا الوكيل ، الذي هو عربي ، ليست له اية فائدة ، كما انه لا يتمتع بالمنزلة الكافية ، ولا بالكفالات ، ويدير التجارة على حسابه الخاص أكثر مما هو على حساب الامة التي لا تمنحه الكفالة الحقيقية الكافية .

وهو ليس في الحقيقة ، سوى عميل باع نفسه لمصالح قنصل صيدا الذي له ، عن طريقه ، حصة في السمسرة .

ولهذا ليس أمامنا الا التوسل الى جلالة الملك الذي يضمر له الامير وشعبه ، اعمق التقدير والاحترام .

ومهما يكن الامر ، فمن الممكن ان تحظى أمة واحدة ، دون غيرها ، بتجارة الدروز ، وليس أسهل على المملكة الفرنسية من تعاطي تلك التجارة ودعمها .

والفوائد التي تنتج عن ذلك ليست غامضة ولا مجهولة ، فالدروز من ناحيتهم ، حين يتناولون بضاعتنا بايديهم ، يحصلون على الاقل ، على أرباح العملاء ، وتلك الارباح تمسي بالنسبة اليهم فرصة لزيادة الاستهلاك .

اما من ناحيتنا ، فنسقط التجارة التي تتقاسمها الامم الان في تلك البلاد ، نحدد القانون للذين يفرضونه علينا بهذا الخصوص.

وبتموينا الشرق على هذه الطريقة ، نتوصل بسرعة الى تموين اوروبة .

فالحرير وحده ــ دون التحدث عن الغاء الحق الذي علينا ان نخضع له تجاه العملاء ــ ينتج للدولة أرباحا سنوية تقدر بملايين عدة ، ونحن نقول الدولة ، لان المال الذي يخرج منها ، ولو الى الافراد ، ولا يعود اليها ، انما هو خسارة حقيقية لها ... خسارة محتومة تحدث نقصا في رأس المال العام .

ان السبب الذي يمنعنا من أن نحصل على مقادير وافرة من هذا الحرير ، لا يبدو واضحا كي نتوقف عنده ، ويقال ان هذا الحرير يفوق بجودته كل انواع الحرير ، ولكنه لا يناسب ، من حيث النوع مصانعنا ، وهذا التفوق في الجودة الذي يجعل المصريين يتهافتون عليه ، هو بالتأكيد ما يرتفع به عن ازيائنا واذواقنا .

غير ان عندنا من دقة الفن بالصناعة ما يمكننا من ان نرتفع بصناعة الحرير الى المستوى الذي تؤمنه المصانع المصرية .

وهل يجوز لنا ، ان نيأس من التوصل الى الاجادة التي تحققها معامل القاهرة ، اذا كنا نرغب في أن نجعل الذين يمقتون طرازنا ، يهرعون الى اقتناء منسوجاتنا من الحرير ؟

لذلك يجب علينا ان نحصل على أكبر مقدار من الحرير ، اذ في مثل هذه الحال الحاضرة ، تستطيع ، بلا شك ، الدولة التي تملك أكبر قسط منه ، ان تتوصل الى امتلاك نبع غزير من الثروة.

فاذا ألححنا في القــول ، أن الامــة التي تتعاطى وحدهــا النجارة المباشرة مع الدروز ، وتدعمها باستقامة أكثر من التي عملنا بها نحن في الماضي ، في تلك البلاد ، هي التــي تجلب الغنــى لمصانعها على حساب مصانع جيرانها الذين يضطرون عند ذلك ، ليس فقط الى أخذ المواد الاولية منها ، بل الى أخذ البضــائع التي تنتجها تلك المصانع ايضا ، وهي بذلك تستدر مال الاجنبي ، وتحصل على خــيرة العملة .

ان السبب في غنى هولندة ، هو ان تجارها يتعاطون كــل انواع التجارة ، فيمونون الشعوب الاخرى التي لا تملك مثلهــا (اي هولندة) الذكاء في الصناعة والاقتصاد والصيانة .

واليهود هم الذين يستأجرون ، في الوقت الحاضر ، مزارع امير الدروز ولكنهم لا يملكون الوسائل السهلة لايذاء الشعب الدرزي الذي لا يقل كرهه لهم عما كان كرهه للعشارين في الماضي

وانه لامر سيء لا مهرب من مواجهته ، ان يكون الذيــن يجبون الضرائب ، في كل الامم ، هم موضوع الكره والمقت من العموم ، كما هم موضوع ريبة عند الامراء الصالحين .

من هنا يمكننا أن نحكم ، هل يصعب على تجارنا ان يؤسسوا مكاتب لهم في تلك البلاد ، بدلا من اليهود .

ان ذلك في الحقيقة ، لا يمكن ان يتم ، الا اذا تدخل القصر ــ كما فعل ــ في بعض الامور . ولكن طيبة الملك وحكمته ، وصلات وزرائه ، هي الضمانة الكفيلة بالحماية الضرورية .